مكتبة
مؤمن قريش
moamenquraish.blogspot.com

أدبيّات النّهوض

نصر ونهضة

وعي المقاومة وقيمها

شفيق جرادي

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

وعي المقاومة وقيمها

مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

اسـم الكتـاب: وعي المقاومة وقيمها

المـؤلـف: شفيق جرادي

إعـداد: سكينة بو حمدان

النـاشـر: دار المعارف الحكميّة

إخـراج الكتـاب: Idea Creation

عـدد الصفحـات: ٨٢

القيـاس: ١٤,٥×٢١,٥

تـاريـخ الطبـع: ٢٠١٤

حقوق الطبع محفوظة ©

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-011-1

[١٤٣٥ هـ. - ٢٠١٤ م.]

دار المعارف الحكمية

Dar Al maaref Alhikmiah

العنوان: لبنان - بيروت - سان تريز - سنتر يحفوفي - بلوك C - ط٣

تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - Email: almaaref@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـــرس

المقدّمة ١

بناء الوعي وتشكّل القيم ٥

المقاومة في معركة الوعي والذاكرة ٣٩

الجهـــاد والمقـــاومـــة ٥١

قيـــم المقـــاومة والانتصـار ٦٧

مقدّمة

إنّ الحديث عن عزّة النفس والكرامة ورفض الظلم هو من الأمور الأوّليّة الأصيلة في النفس والتي لا تحتاج إلى برهان، إذ لا يستطيع المرء أن يعيش أو يحيا من دون أن ينشد حرّيّته ويدافع عمّا هو حقّ له من واقع ومستقبل.

وما تمارسه المقاومة اليوم في قواعد الاقتدار من إلحاق هزيمة بالخصم والظالم والمستبدّ هو من الأمور المشروعة بل والواجبة، والسؤال ليس في مشروعيّة المقاومة بقدر ما هو في الممارسات الاجتماعيّة والعسكريّة لمن يسمّون أنفسهم مقاومين.

إنّ المقاومة بحدّ ذاتها قيمة، بل هي من القيم المؤسّسة للقيم بمعنى أن يقوم الفرد منّا وينهض ليحصّل حرّيّته وكرامته وعزّة نفسه. وهو ما يجب أن يعيه الإنسان، كلّ إنسان، بل كلّ إنسانٍ حرّ وعى حرّيّته التي أفاضها عليه الخالق سبحانه وتعالى في إطار عبوديّته لله، ولا يحقّ لأيّ أحد، أيًّا كان، أن يسلبه ما منحه الله. كما عبّر القرآن الكريم عمّن يسكت عن ظلمٍ يلحقه بأنّه ظالم لنفسه.

يشكّل هذا الكتاب مجموعة من المقالات خطّها سماحة الشيخ شفيق جرادي في مناسبات عدّة. جُمع بعضها في إطار مقالة واحدة منسجمة في الموضوع وبوّبت لتكون على ما هي عليه الآن.

كما ويحتوي على أربع مقالات تحت إطار عنوان واحد جامع هو المقاومة. في المقالة الأولى، "بناء الوعي وتشكّل القيم"، حدّد الكاتب معنى الوعي، ثمّ ذكر النتائج المترتّبة عليه، وما يؤثّر بناء الوعي في نفس الإنسان من إنشاء مَثل أعلى حقيقيّ يحدث تغييرًا كمّيًّا وكيفيًّا على المسيرة الإنسانيّة. ثم أفرد قسمًا للتنظير لكيفيّة تشكّل المقاومة الإسلاميّة وأنّها نتيجة لوعي عقل الخبرة الإيمانيّة، وعدّد أركان قيم وعي المقاومة الإسلاميّة.

أمّا المقالة الثانية، وهي "المقاومة في معركة الوعي والذاكرة"، فبيّن فيها المقصود من الوعي والذاكرة في مفهوم المقاومة لإنتاج مصطلحات جديدة كثقافة المقاومة التي ارتبطت بمصدر حركة المصطلح، وهي حركات النهوض التحرّري التي تتصدّرها حركات المقاومة الإسلاميّة.

بينما قُسّمت المقالة الثالثة، والتي تحمل عنوان "الجهاد والمقاومة"، إلى أقسام أربعة. الأوّل: الجهاد والمقاومة في الإطار الإسلاميّ، فبُحث موضوع الجهاد على المستوى الفقهيّ ضمن سياق المجتمع الإسلاميّ. أمّا القسم الثاني، فنظّر لأهمّيّة المقاومة، وأكّد أنّها حقٌّ طبيعيّ مركوز في أصل حفظ الحياة والكرامة وممارسة الحرّيّة. القسم الثالث، تحدّث عن أنّ خيار المقاومة هو طريق الوحدة بين المسلمين. واستُعرض في القسم الرابع لواقع المجتمع اللبنانيّ.

أمّا المقالة الرابعة، وهي "قيم المقاومة والانتصار"، فيها استعراض للأبعاد الثلاثة التي تحكم حركة المقاومة في بنائها العقديّ والتربويّ والثقافيّ والسياسيّ والعسكريّ. وذكر فيها بعضًا من قيم النصر، ثمّ استُكمل البحث في نموذج حرب تموز ٢٠٠٦م كقيمة لوعي الانتصار.

كما وآمل أن يؤدّي هذا الكتاب الفائدة المرجوّه منه وأن يكون على قدر من تطلّعات القارىء الكريم.

سكينة بو حمدان

بناء الوعي وتشكّل القيم

لقد قامت التجارب والتأمّلات والدراسات، بجهودٍ واسعةٍ وعظيمة لبحث واقع العقل وحقيقة الذهن بفاعليّاتهما الإدراكيّة والمعرفيّة.

وصُنّفت هذه المباحث ضمن أُطر الفلسفة والعلم والتربية، حتّى انقسمت حولها تيّارات واتّجاهات ومذاهب تكاد أن تكون متناقضة في أصولها ومنطلقاتها ما بين مثاليّة في الطرح تُغلِّب الذهن على المحيط والبيئة المجتمعيّة والطبيعيّة، إذ تعتقد أنّ الذهن أو العقل هو المنتج للواقع المحيط، وما بين مادّيّة تعتقد أنّ العقل أو الفكر هو انعكاس للواقع الخارجيّ والبيئة المحيطة.

هذا في الوقت الذي انغمست فيه هذه المباحث بمقولات ومنهجيّات تجريديّة نظريّة، أو تقنيّة أداتيّة أحيانًا كثيرة. فهي، وإن لم تلحظ الشأن الإنسانيّ في المعالجة بشكلٍ مباشر، لكنّها كانت محكومة بتصوّر قبليّ أو بعديّ حول الإنسان في حقيقته ودوره وموقعه من الوجود. والملفت في نتائج مثل هذه المباحث، أنّها قد أفرزت جملةً من قيم الترابط بين الذات وما خلف الذات أو بعدها، أثمرت تحوّلات حقيقيّة في سمات التشكّل المجتمعيّ والحضاريّ.

بناءً عليه، لا يمكن فصل أيّ مبحث يتعلّق بشكلٍ أو بآخر بالإنسان، عن مندرجات قيم وانتظامات حياته النفسيّة والعقليّة والمادّيّة. ولنفس السبب، فإنّ البحث في الإنسان وقيمه لا يمكن فصله عن البحث في الدين، إذ الدين بطبيعته يتّجه من الله إلى الإنسان، أو من الإنسان نحو الله. وهذا التوجّه في حركيّته يقع فيه الإنسان موقعًا مركزيًّا يُبنى عليه، ويُؤسَّس بموجبه.

لذا، فإنّ أيّة محاولة لقراءة شؤون تتعلّق بالإنسان هي قابلة للتشكّل ضمن شبكة استفادات علميّة وفلسفيّة ودينيّة ومعرفيّة تقع على أرضيّة القيم الإنسانيّة وما يتولّد عنها.

وبهذا الصدد، فإنّ الكلام حول الوعي يدخل في صميم مثل هذا التشابك الذي أسلفناه إن من حيث المصدر، أو منابع البحث، أو تشكّل

القيم أو غير ذلك.

معنى الوعي

تحدّثت المصادر اللغويّة في الوعي واعتبرت أنّ "الوعي هو الحفظ والتقدير وسلامة الإدراك"[1]، والواعية "وصف للمؤنث. ويقال: أذن واعية: حافظة"[2]، و "الوَعِيّ: الفقيه الحافظ الكيِّس"[3].

كما إنّ ابن منظور في **لسان العرب** ذهب إلى أنّ الوعي:

> حفظ القلب الشيء [...] حفظه وفهمه وقبله. وفي حديث ابن إمامة: لا يعذّب الله قلبًا وعى القرآن؛ قال ابن الأثير: أي عقله إيمانًا به وعملًا، فأمّا من حفظ ألفاظه وضيَّع حدوده فإنّه غير واعٍ له[4].

هذا، واعتبر أهل اللغة أنّ الوعي من الأوعية وما جمعته، فيكون الوعي بذلك ما ضمّته أوعية العقل والفهم والفؤاد.

انطلاقًا ممّا مرّ، يمكن أن يكون الوعي تعبيرًا عن مجموعة أمورٍ منها:

أ. **الأمر الأوّل: الحفظ**: وهو عبارة عن تلقٍّ لأمر خارجيّ يتمّ وضعه في وعاء الذهن كمعلومة تسترجعها الذاكرة كلّما احتجنا إليها، أو يتلقّاها وعاء القلب لتتشكّل فيه ضمن منظومة المبتنيات النفسيّة والشعوريّة.

ب. **الأمر الثاني: التقدير**: إنّ الوعي لا يكتفي بمجرّد الحفظ وبناء العلاقة مع الذاكرة، بل هو يقوم بعمليّة تصنيف للمدخلات التي تتأتّى الإنسان في عالمه المعرفيّ من خارجه.

ج. **الأمر الثالث: سلامة الإدراك**: إذ بعد التلقّي والحفظ والتصنيف لا بدّ من عمليّة حيازة تفاعليّة بين العالِم والمعلوم، بين الواعي وما

---

(١) **المعجم الوسيط** (تركيا: المكتبة الإسلاميّة، ١٩٨٥)، الصفحتان ١٠٤٤ و١٠٤٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) ابن منظور، **لسان العرب** (إيران: قم، نشر أدب الحوزة، ١٤٠٥هـ)، الجزء ١٥، الصفحة ٣٦٩.

وعاه، بحيث يتمّ ما يشبه التماهي بينهما في تشكّل الهويّة المعرفيّة.

د. **الأمر الرابع: الفهم والتفقّه:** بعد الإدراك يأخذ الواعي بتوليد المعرفة انطلاقًا من معطيات أدركها، ومن خصوصيّات امكاناته الذهنيّة والنفسيّة، فيفيض منها المدّيات المرتبطة بمنطلق معلومته، أو معارفه، بل إنّه يستخدمها في الكشف عن أمور جديدة، قد يأخذ البعض منها طابع التغيير في شكل المعرفة أو مضمونها وخلق بيئة جديدة.

هـ. **الأمر الخامس: الإيمان والعمل:** لا يمكن لنا الحديث عن الوعي كخصوصيّة معرفيّة مفصولة عن التبدّل المضمونيّ عند صاحب الوعي، ومثل هذا التبدّل المضمونيّ هو الذي نطلق عليه اسم الاعتقاد أو التيقّن أو الإيمان. الأمر الذي يعكس نفسه على طبيعة المسلك العمليّ بخياراته والتزاماته وإرادة صنع الحدث والفعل.

لذلك، فإنّ خصوصيّة الوعي، عن كثير من صنوف المعرفة، هو ارتباطه بالمحتوى الوجدانيّ وامتداده الروحيّ عبر الذاكرة مع التاريخ، وتوجّهه نحو الواقع والمستقبل بتبصّر الفطِن، المختار، المريد، والطامح لصنع الواقع والمستقبل بموجب قناعاته وإيمانه والتزاماته. وهذه الدلالات اللغويّة لم تغب عن مسالك أهل الفكر والنظر حينما بحثوا في الوعي والمقصود منه. وغالبًا ما ربط هؤلاء الوعي بالآخر، إذ اعتبروا أنّ الوعي الفعليّ هو ملاحظة وفهم ما وعاه غيرك وما أدركه، بل وهو الناتج عن التفاعل الوجدانيّ العامّ مع البيئة المحيطة، بحيث يولّد عند الإنسان قابليّات وقرارات التكيّف مع واقعه. وهذا التكيُّف قد يظهر في منطقة الشعور المباشر أو في منطقة اللاشعور الفرديّ عند الفرد في وعيه، أو الجماعيّ في حركة وعي الجماعة. ممّا يؤسّس لبنًى في الوعي تقوم على أصول من الإحساس، والتصوّر، والخيال، والذاكرة والانتباه، والحركة، والقرار، والإرادة. وهو ما نطلق عليه اسم اليقظة المفتوحة؛ ومقصودنا من اليقظة،

الوعي مع تقطّعات الزمن؛ لأنّ الزمن بالنسبة إليه ساحة حضور مستديم، وميدان عبرة فعّالة لأولي الألباب والبصائر حسب التعبير القرآنيّ.

وانطلاقًا من هنا، يخوِّل الوعي صاحبه إعطاء انطباع تجاه الأمور ينمّ بحقيقته عن خلفيّات وعيه، بل إنّه يشكّل قاعدة قيميّة ومعياريّة للحكم على الأمور والأحداث والمواقف والسلوكيّات وتحديد موقع الذات الواعية من مجمل هذه المسائل.

يبقى أن نشير، ولو بنحوٍ سريع، أنّ الوعي بما هو قدرة وفعاليّة للإنسان يقع موقع الأصل ومضمونٍ هويّة قوام ذاته ورؤيته وسلوكه مع المحيط أو الآخر، ليتشارك الإنسان بذلك مع عالمه الخارجيّ، بل والذاتيّ أيضًا.

وليس المقصود بالذات والعالم مجرّد أشياء وصور وألعاب، بل بما هما حياة وثوابت ومتغيّرات وتفاعل يدخل فيه سرد الذات بالزمن من ماضٍ يقيم وكأنّه اللحظة؛ إذ اللحظة هي انبلاج التاريخ في وعي المتأمّل، الذي يودُّ الوعيُ فيه أن يُحفظ ليُفهم، ثمّ ليتّجه نحو بناء المستقبل. واللافت في وعي المستقبل، أنّه حصانة الوعي عن التزييف إذا ما انبنى على قيم من الحفظ والنقد المقاوم لكلّ وهنٍ وتشويه.

وهنا تدخل اللغة، والسرد، والفعل الناطق، لتكون وسائط ومحامل الوعي بدلالاتها الكاشفة عن خباياه وحقائق ما يختلج مضامين باطنه.

ونلحظ مثل هذا التوتّر الخلّاق للوعي في وصيّة الإمام عليّ بن أبي طالب، عليه السلام، لابنه الإمام الحسن، عليه السلام، حينما يقول له:

> إي بني إنّي وإن لم أكن عُمِّرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم، وفكّرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم حتّى عدت كأحدهم.
>
> بل كأنّي بما انتهى إليَّ من أمورهم قد عُمِّرت مع أوّلهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كلّ أمرٍ نخيله، وتوخّيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله[٥].

---

(٥) خطب الإمام علي (ع)، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/

إنّ هذا الوعي يمكننا أن نسمّيه بـ "عقل الخبرة"، وهو يقوم على توحيد اللحظة مع ما سبق من خلال التفحّص واستبيان الأمور كما تقدِّم نفسها:

١. النظر في أعمالهم مباشرة ودون مفسِّر أو مترجم أو مؤوِّل، بحيث تنطق الأعمال عنهم.

٢. التفكير في أخبارهم وما قيل حولهم، وكأنّ الإطلاع عليهم من خلال أخبارهم ومن تتبّعها، فيه مشاركة المفسّرين في عقولهم تجاه أعمال الماضين.

٣. ثمّ السير في آثارهم؛ لأنّ ما يثبت من دلالات العمل، وما يركّز في واقعهم الذي تلا هو الأبلغ في التعبير عنهم.

وهذه تعتبر المرحلة الأولى من وعي "عقل الخبرة"، إذ تنبني على المعرفة التوصيفيّة – التفصيليّة.

ثمّ تأتي المرحلة الثانية، وهي وعي عقل الخبرة (التقعيديّ). "كأنّي قد عُمِّرت مع أوّلهم إلى آخرهم". إذ تجمع الخبرة شتات التفاصيل وترصُّ المفردات بحيث تنتج معايير الحكم في:

- كيفيّة إجراء أحكام خبرة العقل العمليّ (نفعه من ضرره).
- آليّات استخراج النتائج والعبر (من كلّ أمرٍ تخيّله).
- توظيف النتائج في خدمة البناء الإيجابيّ (توخّيت لك جميله).
- نقد ومقاومة التأثيرات السلبيّة (وصرفت عنك مجهوله).

ما ينبغي التنبُّه له هنا، أنّ وعي "عقل الخبرة" لا يُدخل الذات في العالم المحيط، بحيث يفنيها فيه، ولا يُدخل المحيط في الذات، بحيث يلغيه، بل هو يقوم على جدليّة (الاتّصال المفارق). وهذا ما تشير له عبارة: "كأنّي" المتكرّرة في كلام الإمام عليّ، عليه السلام. إذ يبقى الزمن هو الزمن، والآخر هو الآخر، والذات هي الذات. إلّا أنّ وعي (عقل الخبرة) يسري في الكلّ، ويحفظ حدود الكلّ؛ لأنّ الثابت فيه التواصل لا الإلغاء، والاختلاف

١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ٢، الصفحة ٤١.

لا المغايرة، وانفتاح الوعي على ثابت التجدّد الدائم الخلّاق، وهو وعي المقاومة الذي يصرف كلّ مجهول.

لذا، لاحظنا في نفس الوصيّة استفادات قدّمها الإمام، عليه السلام، حفظت التوتّر الخلّاق الذي يرفض ربط العقل بجوانب من الحدود النهائيّة

واعلم يقينًا أنّك لن تبلغ أملك ولن تعدو أجلك، وأنّك في سبيل من كان قبلك. فخفّض في الطلب، واجمل في المكتسب، فإنّه رُبَّ طلب قد جرَّ إلى حرب، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًّا، وما خَيْرُ خَيْرٍ لا يُنال إلّا بشرٌّ، ويُسْرٍ لا يُنال إلّا بعُسر[٦].

فنتائج هذا الوعي، بُنيت على مُثُل عُليا، بل مثال أعلى هو الحقّ. وأولدت قيمًا في المسار نحو المثل الأعلى، فضلًا عن توليدها لوعي الحقائق والأحكام:

١. محدوديّة الطالب وسعة المطلوب اللامتناهي؛ إذ يظهر فيه طلب كلّ طالب قبلك "لن تبلغ أملك، ولن تعدو أجلك". إذن، عليك أن تعي "أنّك في سبيل (أي نفس طريق) من كان قبلك"، فأكمل ما بدأوا، وسلِّم الشعلة لمن يأتي بعدك.
٢. الحكمة في صياغة الأهداف والبرامج "خفّض في الطلب، واجمل في المكتسب، فإنّه رُبَّ طلب قد جرَّ إلى حرب".
٣. وعي الذات في أصل جعلها وعيًا يلزم صاحبها بالاستقلاليّة والثقة الحرّة في المسؤوليّة "لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًّا".
٤. أصالة الفلاح على الغلبة في تقرير المصير؛ ونقصد بذلك، أنّ تحقيق أيّة غلبة إذا لم تستتبع بناءً فلا خير فيها "وما خَيْرُ خيْرٍ لا ينال إلّا بشرٍّ، ويُسرٍ لا ينال إلّا بعُسر".

ويحوط وعي (عقل الخبرة) هذا، إيمان قبليٌّ يسري في كلّ حكم وقيمة بعديّة، إذ هو يشكّل روح عقل الخبرة الإيمانيّة، ومفاد هذا الإيمان قوله،

---

(٦) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحتان ٥٠ و٥١.

عليه السلام:

واعلم أنّ مالك الموت هو مالك الحياة، وأنّ الخالق هو المميت، وأنّ المفني هو المعيد، وأنّ المبتلي هو المعافي، وأنّ الدنيا لم تكن لتستقر إلّا على ما جعلها الله عليه من النعماء والابتلاء[٧].

فالذي بيده مقاليد القوّة والعزّة الاقتدار والابتلاء والنعماء هو الله، والدنيا طوع قدرته، فمهما تقلّبت شؤونها فإنّ أمرها بيده، لذا ﴿لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٨]، بل عليك تعميق الارتباط بمصدر القوّة، والسير الدؤوب نحوَ تحقيق الأهداف دون أن يثبِّط من عزمك شيء.

ومن هذا الوعي كان خيار المقاومة القائم على روحيّة قيم الجهاد التي تفرّعت على تلك الأصول من وعي عقل الخبرة للقيم والأحكام.

إذ يبيّن الإمام، عليّ عليه السلام، في خطبة الجهاد، أنّ الفلاح وإن كان الغاية، وأنّ البناء، وإن كان الأصل، إلّا أنّ الجهاد والغلبة هما طريق لغاية هي الفلاح.

فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشملة البلاء، ودُيِّث بالصّغار والقماءة، وضرب على قلبه بالأسداد وأُديل الحقّ منه بتضييع الجهاد وسيم الخسف ومنع الصنف[٩].

فالجهاد عند الإمام، عليه السلام، هو النصرة الإلهيّة التي كساها الأمير، عليه السلام، ببيانه كلّ حُلَل الجنّة والنعم: من أبواب الجنّة، لخاصّة أوليائه، لباس التقوى، درع الله، جنّته الوثيقة.

فباطن الدم والنار والغبار والقتل الذي يظهر على صفحة الجهاد، هناك النور والروح والخير.

وهنا، نلمس أثرًا مزدوجًا في الجهاد وهو تثوير قيم الأخلاق ونقلها من

---

(٧) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٤٣.

(٨) سورة **الحديد**، الآية ٢٣.

(٩) **نهج البلاغة**. مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٦٨.

العزلة كالتقوى، والولاية، والزهد، والجنّة إلى الاقتدار، ليميّز الوعي النابع من عقل الخبرة الإيمانيّة عن أيّ وعي لا يتواصل مع مصدر العزّة والقوّة المتمثّل بالله سبحانه. وأهمّ نتيجة تخلص إليها هذه القيم هي أنّ الحقّ بما هو غاية الغايات يضيع بتضييع الجهاد. إذ حفظ الغاية يحتاج إلى إجراءات ذات شأن بمستوى حفظ الغايات.

ومن أضاع الحقّ ضاع في هاوية الذلّ والضعة، وأن لا تحسب له الأمم أيّ حساب، بل والأدهى من ذلك "ضرب على قلبه بالأسداد"، فما عاد قادرًا على تمييز الحقّ من الباطل، ولا النصر من الهزيمة، ولا الاستقلال من التبعيّة.

الوعي والمثل الأعلى

إذا كان بناء الوعي يقوم على معرفة الذات بما تحويه من ارتسامات العبر والتبصّر، ومعرفة الآخر، بما هو إنسان وجماعة وبيئة وتاريخ، ومعرفة العالم بما هو طبيعة يتفاعل معه الإنسان فردًا أو ضمن جماعة. فإنّ مقوِّمًا رئيسًا من مقوّمات بناء الوعي لا يمكن التغافل عنه أبدًا، لأنّه حاضر لا يغيب عن الذات ولو في منطقة اللاشعور الأعمق الذي يمثّل التأثير الأبعد في وعي الإنسان، ألا وهو المثل الأعلى. وهناك أمورٌ محسومة بخصوص تأثير المثل الأعلى:

الأمر الأوّل: إنّ لكلّ إنسان أو جماعة مثلها الأعلى الذي بحسب طبيعته تتشكّل رؤية الفرد أو الجماعة للوجود والذات وقيم البناء والتفاعل.

الأمر الثاني: إنّ الفرد أو الجماعة بمستوى ما يَعِيان المثل الأعلى الذي يرتبطان به، فإنّهما يستطيعان تقرير وضعيتهما وبناء مصيرهما. إذ إنّ أحداث أيّة عمليّة تغيير في حركة المسار الإنسانيّ أو التاريخيّ إنّما تحتاج للمثل الأعلى الموجِّه لمستقبل المسار. ومن المعلوم، أنّ عمليّة التغيير، وإن وقعت في الحاضر واستجلبت معها الماضي، إلّا أنّها، وبحسب طبيعتها، لا

تقوم على أساس سببيّ كعلاقة شيء بشيء فقط، بل وعلى أساس غائيّ يُستحضر فيه المستقبل قبل وقوعه استحضارًا ذهنيًّا وقيميًّا، ثمّ تتّجه العمليّة نحو بناء ذاك المستقبل المأمول وتحويل المرجوّ إلى واقع.

إذ إنّ وعي الذاكرة التاريخيّة على أساس من هذا الوعي المستقبليّ الذي أسميناه بـ (عقل الخبرة)، لا ترتبط بالتاريخ بجانبه السرديّ، بل بما هو مساعد ومحفّزٌ لتحقيق الهدف. لذا، فالارتباط بالتاريخ لا يعود ماضويًّا أو تسلفيًّا، بل هو استحضار غائيّ مستقبليّ.

وهناك جانب آخر يرتبط بمثل هذا الوعي، وهو أنّه يتحرّك ضمن حركة وفاعليّة الجماعة، وعليه أن يؤسّس لحراك مجتمعيّ فاعل. بهذا، فإنّ الزمن (حركة الأحداث) والجماعة (أرضيّة الأحداث) سيأخذان مضامين مختلفة وفعّاليّات مختلفة على ضوء وعي حضور المثل الأعلى في وعي البناء الإنسانيّ التغييريّ والتاريخيّ.

إذ التجدّد والتقدّم وهجر السكونيّة رهن ارتباط الزمن والجماعة بوعي المثل الأعلى الموجّه لمسار المستقبل. ولا نتحدّث هنا عن مثل أعلى صالح (بالضرورة)؛ بل ما نودّ قوله إنّ أيّ وعي مستقبليّ هو مرتبط بوجود مثلٍ أعلى ما.

لكنّنا، ومن جهة أخرى، يمكن أن نناقش في طبيعة المثل الأعلى لدى الجماعات. إذ قد تجعل أمّة من الأمم ذاتها ومجريات واقعها المثل الأعلى لها، ومثل هذه الأمم حتّى لو استفاقت من وقت لآخر. إلّا أنّها تكرّر نفسها دومًا، وهي بذلك قد تتقدّم، لكنّه تقدّمٌ يتعرّض دائمًا للانهيار. وغالبًا ما يسعى هؤلاء لحفظ استمرارهم بافتعال عدوّ، إذ لا يستطيعون الحياة دون معاداة. ولنا في واقع الكيان الغاصب وتاريخه القديم خير مثال على إنتاج إله الشعب المختار، وقيم العداوة الحافظة لوجود هذا الكيان. إذ كلّ آخر هو مغاير، وكلّ مغاير هو عدوّ حرب، أو صديقُ الضرورة، وقد نجد نموذجًا آخر لإنتاج المثل الأعلى، وهو المبنيّ على أساس السلطة والسيادة. وهو نوع

يحمل كلّ مفاعيل القوّة على إيقاف أيّ تطوّر في وعي الجماعة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[10].

بحيث تفقد الجماعة القدرة على النقد والمعرفة والتقدّم، فلا ترى خارج الاستتباع أمنًا أو استقرارًا. إذ إنّ لهذا المثل الأعلى قدرة خاصّة على بثّ روح الهزيمة والخوف من المستقبل بتحويل المستقبل إلى مجهول بدل أن يكون غاية.

وهذا ما يفرض على حركة الجماعة واحدًا من اثنين: إمّا الركون ومتابعة السيّد الحاكم في ما يُرشد ويوجّه تحت عنوان الرغبة بالحياة ومتعة الحياة الدنيا، وإمّا الانتفاض العنيف والفاصل وهو المقاومة الطامحة لإحداث الهزيمة في نفس هذا المثل الأعلى، الذي لا يحقّق التقدّم إلّا ضمن دائرة الاستتباع التي يرسمها؛ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[11].

أمّا القسمَ الثالث، فهو الذي يرتبط بمَثل أعلى يؤمن أنّه مصدر وجوده وخير حياته وكمال معنويّاته. وهو، وإن كان معه حيثما كان في سرّه ونفسه وظاهره، إلّا أنّه متعالٍ عنه. يدفعه نحو الكدح إلى كماله واطلاقه وسعته التي لا تعرف حدودًا، وهذا المثل الأعلى لا ينتجه المرء بوعيه، بل يتقوّم وعيه بالإيمان به، لأنّه ذات حقيقيّة لا افتراضيّة أو توليديّة تتماشى حسب المفاهيم والتصوّرات والنزعات؛ ذات هي عين الحقيقة والتأثير والحياة.

ومن سمات هذا المثل الأعلى أنّه - حسب الإيمان الإسلاميّ - ربٌّ بكلّ ما تحمل الكلمة من عناية في تربية الإنسان بفكره وإرادته ومواقفه عند المنعطفات، ربٌّ يترك لطابع البشريّة في الإنسان أن يأخذ كلّ تفاعلاته، إلّا أنّه ينمّي فيها ما يجعل القداسة كمال البشريّة. فيضع آداب وسنن صراع الترقّي والتغيير ضمن الحركة الجهاديّة التاريخيّة في التكامل حتّى

(١٠) سورة **غافر**، الآية ٢٩.

(١١) سورة **العنكبوت**، الآية ٤١.

بالنسبة للرسل والأولياء؛ ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[١٢].

هذه الآيات تفرد أمام الرسول حقائق جدليّات الصراع بين الحقّ والباطل، وكيف أنّها تستند إلى الإغواء تارةً والعنف تارةً أخرى، وكيف أنّ العناية الإلهيّة تُرشد أهل الحقّ على الثبات حتّى يضيق الباطل ذرعًا بهم، فإذا ما أقفلت السُبُل أمامه لجأ الباطل إلى الخيارات المجرّدة عن كلّ خُلقيّة؛ وهذا يعني بداية الانحدار والتردّي في سلطة كيانه، وهذه الحال سنّة إلهيّة يشهد تاريخ الصراع على صدقيّتها.

ولا تكتفي عناية المثل الأعلى هنا على مجرّد وضع السنن والإلفات إليها، بل إنّها تستجرّ الذاكرة لضخّ المعنويّات في وعي إرادة الإيمان، وتوليد (عقل الخبرة الإيمانيّة)، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١٣].

ثمّ بعد ذلك ترتبط الذاكرة بوعي الواقع، والواقع بوعي المستقبل، والمستقبل بالمثل الأعلى الموجّه ووعده بتحقيق الأهداف؛ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[١٤].

وهكذا يتحوّل المثل الأعلى إلى قيُّوم على الذات والزمن والإنسان

---

(١٢) سورة **الإسراء**، الآيات ٧٢- ٧٧.

(١٣) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٧.

(١٤) سورة **البقرة**، الآية ٢١٤.

والمحيط. فلا يعود لأيٍّ منها سلطة الإطلاق وحقّ افتراس الآخر، أو نهب الذات والعالم. إذ الكلّ منه وإليه وما الجماعة إلّا مُسْتَخْلَفَةٌ مُسْتأمَنَةٌ على رعاية الحقّ الإلهيّ في الوجود والإنسان، والعالم والحياة.

وهذا المثل الأعلى الحقيقيّ، حينما تتبنّاه المسيرة الإنسانيّة، وتوفّق بين وعيها البشريّ وبين الواقع الكونيّ الذي يفترض هذا المثل الأعلى حقيقة قائمة، حينما يتمّ التوفيق في اتّجاه المسيرة نحو الله فسوف يحدث تغيير كمّيّ وكيفيّ على المسيرة.

أمّا التغيير الكمّيّ، فهو أنّ الطريق لن يتوقّف، إذ هو غير متناهٍ. وبالتالي، فمجال التطوّر والإبداع، والنموّ قائم أبدًا ودائمًا. وبناءً عليه، سيتجاوز المسير كلّ الآلهة المزوّرة التي تقف عقبة بين الإنسان وبين وصوله إلى الله سبحانه.

ومن هنا، كان دين التوحيد صراعًا مستمرًّا مع كلّ أشكال الآلهة والمثل المنخفضة والتكراريّة.

أمّا التغيير الكيفيّ، فهو في إعطاء الحلّ الموضوعيّ للجدل والتناقض الإنسانيّ، وإعطاء الشعور بالمسؤوليّة الموضوعيّة لدى الإنسان؛ ذلك أنّ المثل الأعلى هنا هو نفسه واقع عينيّ منفصل عن الإنسان، وبهذا يعطي للمسؤوليّة شرطها المنطقيّ. فإنّ المسؤوليّة الحقيقيّة لا تقوم إلّا بين جهتين: مسؤول، ومسؤول لديه. لذلك صنعت هذه الحقيقة رجالًا كالأنبياء لا يعرفون المساومة والمهادنة أو الملل، وبنت سياقًا جهاديًّا لوعي مقاوم ما زال حتّى اليوم يطرح نفسه كبديل عمليّ ينطوي على رساليّة خلاصيّة للواقع الحضاريّ المأزوم بكلّ مفاعيله السياسيّة والعمليّة وقيمه المعرفيّة والحضاريّة[١٥].

(١٥) للمزيد انظر، محمّد باقر الصدر، **المدرسة القرآنيّة**، تراث الشهيد الصدر، المؤتمر العالميّ للشهيد الصدر، بتصرّف.

المقاومة الإسلاميّة وعقل الخبرة الإيمانيّة

جاءت المقاومة الإسلاميّة ضمن ظروف من الصراعات والتحوّلات الكبرى في المنطقة والعالم منها:

أ. استكمال السيطرة الأمريكيّة – الإسرائيليّة على قدرة الممانعة لدى غالبيّة حكومات ودول المنطقة العربيّة والإسلاميّة، وقد تبدّى ذلك بتوقيعات مذلّة بين أطراف عربيّة وإسرائيل برعاية أمريكيّة استفردت بالوضع، وأخرجت العالم من ساحة التأثير والتدخّل الفاعل في مجرى الصراع، ممّا شكّل غطاءً دوليًّا لهذا الانهزام الإقليميّ في السياسة بعد أن شهدت المنطقة سلسلة هزائم وانتكاسات عسكريّة كبرى بفعل الاحتلال والعدوان الإسرائيليّ المدعوم دوليًّا.

وقد أثّر ذلك على وعي شعوب المنطقة التي انتقلت في بعض شرائح نخبها إلى مُدافع عن هذا الواقع المستجدّ في الوقت الذي انطلقت لدى غالبيّة هذه الشعوب المطالبة بمقاومة التطبيع مع إسرائيل، وهو شعارٌ، وإن حمل الكثير من دلالات الرفض لهذا الواقع، إلّا أنّه وقع فريسة الانهماك عن المقاومة العسكريّة، والمقاومة الشاملة، التي ترى دورها في اجتثاث أصل الوجود الإسرائيليّ في كامل المنطقة.

بل إنّ من بعض دلالاته نقل قسط وافٍ من المقاومة إلى داخل البيت العربيّ الواحد.

ب. القبض على القضيّة الفلسطينيّة، من قبل بعض الفصائل الفلسطينيّة، وتصويرها مجرّد مسألة خاصّة يحظّر على أحد التدخّل في شأنها الداخليّ، بل واعتبار أنّ القدس هي مفردة من مفردات هذه القضيّة الخاصّة، بعد أن كانت عنوان الكرامة العربيّة، وضمير الروح الإسلاميّ، ونبض الشارع العربيّ من

أقصاه إلى أقصاه. وهذا ما جعل انقسامًا حادًّا بين الاتّجاهات الفلسطينيّة نفسها. ممّا أولد انعطافةً في الذاكرة التي كانت تمثّل حافظة المشروعيّة السياسيّة للعمل الفدائيّ الفلسطينيّ. وأتاح أمام الأصوات القوميّة والإسلاميّة حقّ الاعتراض والتصدّي، لإعادة تشكيل بناء الموقف الفلسطينيّ. ومن الطبيعي عند مثل هذه الحال، أن يشهد الوعي المقاوم بلبلةً تحتاج إلى وقت حتّى يستقرّ على خيارات واضحة.

ج. انحسار أيّ دور دوليّ ثنائيّ الأطراف، وبروز الولايات المتّحدة الأمريكيّة على رأس نظام عالميّ أحاديّ جديد. حَكَمته عقليّة حركات يمينيّة متطرّفة متماهية بعناصر مكوّناتها الدينيّة والسياسيّة مع الصهيونيّة وتفوّق إسرائيل الكيان. بل، وبنت هذه العقليّة دورها ومهمّتها التاريخيّة على صوت إلهيّ يأتيها، يثير فيها جلجلة الحروب على دروب العالم والمنطقة، ويعتبر أنّ الإسلام هو الشرّ المستطير الذي ينبغي معالجة خطره إمّا بتفريغه من محتواه ومضمونه، أو باستئصال حضوره الفاعل.

د. بروز قلق واضطراب في الموقف والخطاب الإسلاميّ العام، سيّما عند الحركات الإسلاميّة، عرَّضها لمخاطر الغلوّ في المعتقد والموقف، بالتالي غلوّ الوعي. أو جعلها أحيانًا فريسة الالتقاطات الحكوميّة، والمؤسّسات الرسميّة، والليبراليّات الغربيّة المفتوحة على خطط وإجراءات الاستلحاق بالمشروع الاستحواذيّ الأمريكيّ.

أمام هذه التحوّلات والمنعطفات، كان لا بدّ من ولادة جديدة لمشروع استنهاضيّ جديد يحايث الأبعاد الوطنيّة والعربيّة والإسلاميّة، إلّا أنّه يحمل بذور مهمّة وقيم جديدة إن من حيث الأهداف والغايات، أو من حيث الوسائل والأساليب؛ بل من حيث الرؤية لمجمل الواقع.

ومع وصول المشروع الإسرائيليّ إلى ذروة استهدافاته وطموحاته في لبنان والمنطقة، ودخوله العاصمة العربيّة بيروت، وفرضه مسارات جديدة على الجميع. فقد تشكّلت بذور وعي مقاوم ينطوي على وقائع ولادة من رحم الواقع بكلّ تكثيفه الرمزيّ الجامع والقلق والمضطرب.

لكنّها ولادة تشي بالبحث عن السؤال التالي:

هل المقاومة المرجوّة هي ردّ فعل ضروريّ على هذا الواقع السائد؛ واقع الاحتلال من جهة، والانهيار العربيّ من جهة أخرى؟ أم أنّها مقاومة تعبِّر عن مغزى ذات حضاريّة تستنهض نفسها على أرضيّة من التحوّلات الاستراتيجيّة الكبرى، وتستند في مشروعيّة فعلها الجهاديّ على ضرورة وجود ردّ فعل على الواقع السائد؟

هذا، في الوقت الذي يُجمع فيه الكثيرون على أنّ المقاومة هي ردّ فعل لواقع ظالم يسبّبه الاحتلال للأرض، وردّ الفعل تجاه أيّ واقع متردٍّ هو تعبير عن واحد من اثنين:

الأوّل: السقوط أمام المحتلّ والتسليم له ولو بعد محاولات من التفلّت من قبضته، بحيث يتحوّل الاحتلال إلى واقع أوسع من حيّز المكان الذي دخل إليه.

إنّه يتحوّل إلى محيط عيش للناس القاطنين، ومحور حركتهم التي تتكيّف معه ولو على نحو الجبر والإكراه.

ثمّ يأخذ بُعدًا آخر عندما يصير قدرًا قابعًا في منطقة اللاشعور النفسيّ والموجِّه اللاواعي للنظرة إلى التاريخ والمستقبل. بحيث إنّ هذا القَدَرَ الجبريّ الجديد يلزم الذات بالتثبّت الجامد في وضعيّة لا تتجاوزها، إنّها أشبه ما تكون حينئذٍ بكابوس يصيب الوعي بالشلل والعجز عن قدرة الحراك، يطلب الاستفاقة فلا يستطيع؛ الأمر الذي يضع الوعي أمام أسر خفيّ محكوم بجملة أمور منها:

أ. تجدّدٌ نكوصيٌّ يأخذ شكل مقاطعة النضج، وإضراب عن النموّ،

وانسحاب عن سيرورة التطوّر والتقدّم[١٦].

ب. تحوّل الماضي إلى مجرّد ذكرى محبّبةٍ تارة، وملعونة تارة أخرى، إلّا أنّها وبكلّ الأحوال لا تتّصل بالواقع، ولا تشكّل رصيدًا محفّزًا نحو المستقبل.

ج. الانجذاب إلى سحر شرانق الأفكار وتوهين قيمة الفعل والعمل، كأنّما الأفكار القابعة في ممالك الذهن هي صانعة الانتصارات أو الهزائم.

د. الخضوع لمنطق ردّات فعل متعاكسة بين استتباع لواقع إكراهيّ هو حضارة الغازي، أو رفضه بماضويّة لا تحيل في الواقع إلّا إليه.

هـ. القناعة بمركّبات نقص من ثنائيّات الخوف والثورة، جلد الذات والبحث عن عنصرها المميّز، دونيّة القهر وشتم الآخر.

و. الانحباس في لغة خطاب تحيل الأشياء إلى مجهول، فلا فاعل مباشر أو ملتزم، إذ الكلّ في حياد سلبيّ: الذات، الهويّة، التاريخ، الذاكرة، القيم، الواقع، الوعي وغيرها. وكأنّ صاحب الخطاب لا يمتّ لحياته بصلة، إذ كلّ تعبيره قائم على المجهول.

الأمر الثاني: العمل على مقاومة المحتلّ انطلاقًا من وعي الذات على أصول من قيم معيّنة، تدفع باتّجاه مجابهة السائد من الواقع، ورفض أن يتحوّل إلى مألوف مستديم، وتعمل على رسم مسارات جديدة للواقع المأمول.

ومعلوم أنّ التداول العربيّ في نطاق المقاومة يبيح لنا الجمع بين معانٍ أربعة أساسيّة هي: القوم، والقيام، والقيمة، والقومة؛ ذلك أنّ المقاومة ينهض بها قوم مخصوصون، وأنّ هؤلاء القوم يقومون بدفع شرٍّ قائم بين أظهرهم، ويتوسّلون في ذلك بقيم مُثلى، عاملين على تحقيق قومة مخصوصة، فتكون القَومة عبارة عن

(١٦) للمزيد انظر، الطرابيشي، **المثقفون العرب والتراث: التحليل النفسيّ لعصاب الجماعة** (لندن: رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة١، ١٩٩١م)، الصفحة ٢١.

نهوض بالقيم؛ ومن هنا، فالمقاوم، عمومًا، يتولّى تجديد الوعي بالقيم[١٧].

إذن، هناك واقع سيء، وهناك قيمٌ مأمولة وأهداف متوخّاة، وهناك ممانعة قوم عن الاعتراف والتكيّف مع هذا الواقع، وهم يسعون بمقاومتهم لتغيير المسار على أصول من القيم التي يؤمنون بها.

إلّا أنّ هذا المعنى المشترك لا ينفي وجود الخصوصيّات المتعلّقة بأصل القيم المتبنّاة، وباختلاف الأقوام وطبائعهم، وحيثيّات الظروف والأمكنة والقضايا. إذ لكلّ خصوصيّة تأثيرها الخاصّ في طبيعة المقاومة هنا أو هناك، وطبيعة الموقف من المحتلّ؛ وهل المقصود هو إزالة وجوده العسكريّ، أو منعه من أيّ تدخّل بشؤون البلاد والعباد، أو إيجاد مكان متميّز في منظومته الحضاريّة وشبكة سياساته، أو إيجاد البديل الحضاريّ عنه؟ ثمّ ما هي القيم المطروحة وما هي حدودها؟ وما هي التجارب التي قامت بها؟ وهل تعتبر نفسها استكمالاً لحركة المقاومات التي سبقتها؟ وما علاقتها مع الذاكرة والتاريخ؟ ما علاقتها مع المحيط؟ وهل تؤمن بتعدّديّته أم أنّها نموذج انحصاريّ؟ وكيف تشكّل وعيها على كلّ ذلك، بمسبقات عمليّة لا تتجاوزها؟ أم أنّ وعيها يتماهى مع حراك الهدف في إطار الصراع ومجابهة الواقع؟

إنّ لهذه الأسئلة، وغيرها كثير، دورًا أساسيًّا في تشكّل هويّة وحركة ووجهة أيّ مقاومة.

ونحن هنا في الوقت الذي نجد فيه أنّ القواسم المشتركة - بين كلّ حركة مقاومة للاحتلال - كبيرة وواسعة، ونجد أنّ للخصوصيّات دورها الرئيسيّ في خاصّيّة أيّ مقاومة. فإنّنا نؤمن أنّ نجاح أيّ خصوصيّة يمكن أن يشكّل غنًى في تفاعل وعي القاسم المشترك بين المقاومات.

لذا، فنحن وإن كنا معنيّين بهذا المبحث في معالجة المقاومة الإسلاميّة بتشكّل وعيها ونظام قيمها، فإنّ هذه العناية لا تخرج عن إطار المساهمة

---

(١٧) طه عبد الرحمن، **الحداثة والمقاومة** (بيروت: دار المعارف الحكميّة، الطبعة١، ٢٠٠٧م)، الصفحة ٥١.

في رسم مسار الخطّ الحضاريّ البديل، عن حضارة الاستحواذ الأمريكيّ. هذا المسار الآخذ بالتشكّل من أمريكا الجنوبيّة إلى إيران، وإلى شعوب ودول عربيّة.

ولقد رأى المفكّر المغربيّ طه عبد الرحمن في تجربة المقاومة الإسلاميّة اللبنانيّة وعيًا بقيم منتجة لحداثة جديدة مبنيّة على ولادة إنسان جديد.

إذ تأتي

على رأس العناصر التي تشكّل لبّ الحداثة، فعل الإبداع مع العلم أنّ الفعل لا يكون إبداعًا حتّى يرتقي بالإنسان درجة.

وغير خافٍ أنّ هذا هو حال المقاومة الإسلاميّة في لبنان، فقد حقّقت بانتصارها على المحتلّ تحوّلًا وجوديًّا في الأمّة نقلها من طور العجز إلى طور القدرة. ولم تكتفِ المقاومة الإسلاميّة بأن تفتح للأمّة باب الحداثة، بل أنزلتها رتبةً لم تنزلها مع حركات التجديد الإسلاميّ السابقة، إذ إنّها أعادت للدين وظيفته المتكاملة، ولقيمه أبعادها المتفاعلة[١٨].

وحتّى يستبين المقصود من كلامه، من الواجب الإشارة إلى أنّ مقصوده بالحداثة هنا، ليس العصر الخاصّ بانبعاث الغرب وتشكّل هويّته المجتمعيّة ومنظومته المعرفيّة والحضاريّة؛ إذ إنّ (عبد الرحمن) يفرّق بين واقع الحداثة الخاصّ، وروح الحداثة التي هي حقّ لكلّ أحد، بحيث إنّ الحداثة هنا تصبح "عبارة عن نهوض الأمّة، كائنة ما كانت بواجبات واحدٍ من أزمنة التاريخ الإنسانيّ، بما يجعلها تختصّ بهذا الزمن من دون غيرها، وتتحمّل المضيّ به إلى غايته في تكميل الإنسانيّة"[١٩].

ومثل هذا الفعل الحداثويّ؛ أي التجديديّ؛ ينطوي على شروط هي مبادئ قيم رئيسيّة تتوزّع منها قيم فرعيّة أساسيّة:

---

(١٨) **الحداثة والمقاومة**، مصدر سابق، الصفحتان ١٥ و١٦.

(١٩) **الحداثة والمقاومة**، مصدر سابق، الصفحة ٢٠.

أحدها: مبدأ الرشد؛ مقتضى هذا المبدأ أنّ الأصل في الحداثة هو الانتقال من حال القصور إلى حال الرشد. والمراد بالقصور هنا، هو التبعيّة الفكريّة والسلوكيّة. فيكون المراد بالرشد هو تحصيل الاستقلال والإبداع في التفكير والسلوك.

والثاني: مبدأ النقد؛ وهو الانتقال من حال الاعتقاد إلى حال الانتقاد؛ والمقصود بالاعتقاد التسليم بالأمر من دون دليل، بينما الانتقاد هو الاستدلال العقليّ على الأشياء والفصل بين مجالاتها بما يتيح ضبط أسبابها وكشف آلياتها.

والثالث: مبدأ الشمول؛ إذ الأصل في الحداثة الانتقال من الخصوص إلى حال الشمول، سواءً أكان الخاصّ هو (المجال) أم (المجتمع). فيكون المراد بالشمول هو القدرة على تجاوز هاتين الخصوصيّتين والتأثير في مختلف المجالات الحياتيّة ومختلف المجتمعات الإنسانيّة.

ويعتقد (عبد الرحمن) أنّ التطبيق الحداثيّ مشروط بشرطين عامّين:

الشرط الأوّل: الانبعاث من الداخل.

الشرط الثاني: الالتزام بالاجتهاد. إذ يجب الاجتهاد في الاستقلال عن الغير وفي الإبداع. كما يجب الاجتهاد في الاستدلال والفصل بين الأشياء، وأخيرًا الاجتهاد في تعميم الإنجاز الاجتهاديّ.

ومن مجمل ما مرّ، فإنّه لا يرى أيّ إمكانيّة تجديديّة حداثويّة عند حكومات عالمنا العربيّ والإسلاميّ، بل يعتبر أنّ الشعوب هي المؤهّلة للقيام بمثل هذا الدور، وذلك من خلال مقاومتها، ووعي دورها المقاوم[٢٠].

وهذا ما حقّقته المقاومة الإسلاميّة في لبنان؛ "إنّ النموذج الإسلاميّ في المقاومة، متمثّلًا في حرب تموز ٢٠٠٦ أدخل الأمّة في طور فاصل من أطوار الحداثة الإسلاميّة التي ابتدأت يوم أن قرّرت الأمّة أن تتولّى أمرها

(٢٠) للمزيد انظر، كتاب **الحداثة والمقاومة**.

بنفسها"[٢١].

انطلاقًا من هذا النموذج المقاوم، فإنّ فهم تشكّل الوعي والقيم عند المقاومة الإسلاميّة، لا يرتهن للحظة ردّة الفعل في مواجهة الاستعمار والاحتلال فقط؛ وإن كان هذا الاحتلال هو السبب المباشر في إطلاق شعلة المقاومة. بل إنّ هناك مغزًى حضاريًّا خاصًّا تقوم عليه هذه المقاومة نصطلح على تسميته (الاقتدار) في القيم وفي تشكل الهويّة الحضاريّة المطلوبة. وهذا الاقتدار لا يمكن إلّا أن يكون مبنيًّا على وعي (عقل الخبرة الإيمانيّة). وكما أسلفنا ببداية البحث، إنّ هذه الخبرة تواقع الواقع بعبرة من ذاكرة الماضي لتستولد منه بناء الهدف والمستقبل. وما مقصودنا بالاقتدار إلّا الاستطاعة على أعمال القدرة؛ إذ

القدرة هي كون القادر قادرًا. وكلّ مستطيع قادر وليس كلّ قادر بمستطيع؛ لأنّ الاستطاعة: اسم لمعانٍ يتمكّن بها الفاعل ممّا يريده من إحداث الفعل وهي أربعة أشياء:

١. إرادته للفعل.

٢. قدرته على الفعل، بحيث لا يكون له مانع منه.

٣. علمه بالفعل.

٤. وتهيّؤ ما يتوقّف عليه الفعل[٢٢].

فالاقتدار هو المُكنة والاستطاعة وهي لا تحصل إلّا من خلال: إرادة وعزم فاعل، والاستعداد الذاتيّ للقيام بالفعل، وتحضير كلّ الأسباب المتاحة للتنفيذ من إمكانات وخطط وسياسات، والمعرفة بطبيعة الموقف ومستلزماته.

لذا، فالاقتدار المقاوم هو فعلٌ وليس حرب تنظيرات، وهو معرفة مقاصديّة وتفصيليّة بالأهداف والإجراءات، وخبرة بمسار السنن وحقائق

---

(٢١) **الحداثة والمقاومة**، مصدر سابق، الصفحتان ٤٢ و٤٣.

(٢٢) أبو هلال العسكري، **الفروق اللغويّة** (قم: مؤسّسة النشر الإسلاميّ، جامعة المدرّسين)، الصفحة ٤٧.

الواقع دون الارتهان لتزييف من مظاهره وما يطفو على سطحه.

لكن يبقى أن نشير أنّ الاقتدار في منظومة الفعل الحضاريّ للمقاومة الإسلاميّة إن تكن كقيمة، فعلى قاعدة من وعي إيمانيّ خاصّ بعقل الخبرة. لذا، فرغم وضعيّته الاستراتيجيّة، إلّا أنّه وكما قلنا يأتي تعبيرًا عن مغزًى حضاريٍّ خاصّ؛ وهو مغزًى لا ينكشف إلّا باستبيان ما ينتج عنه من قيم وليدة نستحضرها من واقعٍ ما نعيشه في تجربة المقاومة الإسلاميّة، وما عبّرت عنه أدبيّات هذه المقاومة خاصّة على لسان الناطق عنها السيّد حسن نصر الله.

وإذا كان التتبّع التفصيليّ لتشكّل وعي القيم عند المقاومة الإسلاميّة ضرورة ملحّة، فإنّ بعض الإشارات العامّة لأركان هذه القيم هو ضرورة أيضًا.

أركان قيم وعي المقاومة الإسلاميّة

ارتكزت هذه المقاومة في وعيها على الجانب الإيمانيّ بالدرجة الأساس، حيث اعتبرت أنّ خبرة التجربة في الميدان كانت تؤكّد على هذا العمق الإيمانيّ المطلوب.

> الإسلام كان يركّز دائمًا على وجوب أن يترسّخ الإيمان في أعماق نفس الإنسان [...] الإسلام لا يريد منّا فقط أن نقول: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله، وأشهد أنّ الموت حقّ، وأنّ البعث حقّ، وأنّ القيامة حقّ [...] هو يريد منّا أن تدخل هذه الكلمات في قلوبنا وأرواحنا وأعماق نفوسنا، وبالتالي نعيش، نتكلّم، نقول، نفعل، نحارب، نسالم، نوالي، نعادي، نتصرّف، نحبّ ونبغض على أساس هذا الإيمان.
>
> تنزّل الآيات ليزداد المؤمنون إيمانًا؛ لأنّه حتّى الإيمان هو درجات. الامتحانات الإلهيّة للمؤمنين ليزدادوا إيمانًا [...] الجهاد والمواجهة ليزدادوا إيمانًا [...] الوفاء بالوعد الإلهيّ في الانتصار ليزدادوا إيمانًا.

الله تعالى يهتمّ بهؤلاء المؤمنين ليزدادوا إيمانًا، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[٢٣]. ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[٢٤].

المحنة تزيد المؤمنين إيمانًا، وكذلك الطمأنينة والسكينة والنصر الذي ينزّله الله على قلوب عباده[٢٥].

ومثل هذا الإيمان يولّد علاقة بالحقائق مبنيّة على قيمة كبرى هي (اليقين الواثق). "صدّقوني، إنّنا اليوم بحاجة وقبل أيّ شيء إلى اليقين والإيمان والثقة، الإيمان بالله ووعده ونصره، الإيمان بحقّنا وقدرتنا على صنع الانتصار، اليقين والثقة بشعبنا وأمّتنا، والثقة بتحرير الأرض المقدّسة"[٢٦].

فركن الإيمان يولّد قيمة اليقين. واليقين تتفرّع عنه الثقة بالوعد الإلهيّ بالنصر، وهذا ما يستدعي الثقة بالأمّة والشعب وصناعة المستقبل.

ولو أردنا إفراد فرز قواعديّ لهذا الركن لأسميناه:

الركن الأوّل: الإيمان بالمعيّة القيّوميّة لله على الوجود والحياة والناس.

لذا، فعندما جاء قرار المقاومة إنّما جاء من هذا المغزى الحضاريّ الإيمانيّ الموصول بعقل الخبرة الإيمانيّة

هذه المقاومة منذ اليوم الأوّل كانت مقاومة لله، وقتالها ودموعها ودماؤها وسعادتها وألمها وفرحها وحزنها وتضحياتها لله. هؤلاء الذين قدّموا أولادهم وأنفسهم وأهليهم وإخوتهم وصبروا وتحمّلوا، كانوا يرون الله ويطمعون برضاه ورضوانه وبتوفيقه ونصره، ولذلك كانت المقاومة الإسلاميّة من أبرز المصاديق

(٢٣) سورة **الكهف**، الآية ١٣.

(٢٤) سورة **الأحزاب**، الآية ٢٢.

(٢٥) أحمد ماجد، **الخطاب عند السيّد حسن نصر الله** (بيروت: دار المعارف الحكميّة، الطبعة١، ٢٠٠٧م)، الصفحتان ٤٤ و٤٥.

(٢٦) **الخطاب عند السيّد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة ٤٦.

التاريخيّة، ومن أبرز المصاديق المعاصرة لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٢٧].

بناءً عليه، ارتسمت المقاومة باعتبارها الأولويّة الكبرى في حركة المجاهدين لما احتضنته من هذا المغزى الحضاريّ الإيمانيّ.

"لقد أسّس السيّد عبّاس وإخوانه مقاومة لله وضعت أمامها هدفًا جدّيًّا، ولم تساوم، وجعلته الأولويّة، كلّ شيء في خدمة المقاومة [...] والمقاومة في خدمة الله من أجل تحقيق النصر"[٢٨].

وهذا ما رسم الخط البيانيّ للأولويّات، إذ هدف هذه المقاومة هو الدفاع عن أصل الدين، وعن مضامين القيم الإلهيّة التي ترسم للحياة والإنسان معالم مساراته. "هي معركة الدفاع عن أصل الدين"[٢٩]. لذا، فالتفاصيل لا تتحوّل إلى أساس "ينبغي وضع كلّ خلافاتنا العقائديّة والدينيّة جانبًا"[٣٠]. فالقضايا هي الجامعة على أساس من قيم المغزى الحضاريّ الإيمانيّ.

بعد هذا اليقين الواثق الذي يرسم سُلّم الأولويّات على أصول من وعي عقل الخبرة الإيمانيّة تنبع قيمة الصدق في العهد مع الله والذات والأمّة.

> ليس القتال هو الذي صنع النصر، القتال كان دليلًا وشاهدًا منّا أمام ربّنا على صدقنا، وصدقنا هو الذي أنزل النصر [...] النصر الإلهيّ أمر مشروط بالجهاد والصبر والتضحية والصدق والإخلاص [...] جاء النصر لأنّه توافر في المقاومة وأهلها شرط اللياقة والجدارة، فالله تعالى لا يعطي النصر والعزّة لمن ليس جديرًا بهما[٣١].

وبهذا المعنى، فإنّ الصدق هو قيمة تستدعي جملة قيم أخرى، بفعل

---

(٢٧) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٥٤.

(٢٨) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٥٥.

(٢٩) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٣٨.

(٣٠) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٣٨.

(٣١) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٧٢.

العمل المقاوم. إنّها تستدعي قيمة النصر، وقيمة العزّة. فالنصر لا يُنظر إليه كمجرّد حدث – حسب عقل الخبرة الإيمانيّة – بل هو قيمة لا تضاف إلّا إلى من يستحقّ ويليق به نيلها.

وكما النصر قيمة، فإنّ الشهادة تصبح قيمة لا ينالها من طلبها، بل من استحقّها في الطلب والنيّة والصدق والجدارة.

الشهادة تشترك مع النبوّة في أنّ النبوّة اصطفاء الله، الله يصطفي النبيّين. والله يصطفي الشهداء. الله يجتبي النبيّين. والله يجتبي الشهداء. الله يختار النبيّين. والله يختار الشهداء. المطلوب أن نعمل في تزكية أنفسنا وأرواحنا ومراقبة أقوالنا وأعمالنا ونوايانا لتصبح أنفسنا لائقة بدرجة الشهداء[٣٢].

وحتّى تكتمل صورة القيم المؤسِّسة للنصر والشهادة ضمن العيش في منطق توحيد المعيّة القيوميّة الإلهيّة، فإنّ القيمة المؤسِّسة الثانية بعد الصدق، هي قيمة الوعي – المعرفة.

شهداؤنا ومجاهدونا ليسوا طلّاب موت وفناء وعدم، وهل يمكن أن يعشق الإنسان الفناء والموت الذي يعقبه المجهول؟

شهداؤنا من موقع الإيمان والالتزام والوعي والفهم واليقين كانوا طلّاب حياة، بل طلّاب أعظم حياة، وكانوا باحثين عن الوجود، بل عن الوجود الحقيقيّ والمطلق، كانوا طلّاب كمال ولذلك وصلوا إلى ما كانوا يطلبون[٣٣].

بعد هذا الركن الأوّل (المعيّة القيوميّة الإلهيّة) لنظام القيم الذي تولّد عن (عقل الخبرة الإيمانيّة) والذي فعّلته المقاومة وانبنت عليه، يجيء:

الركن الثاني، وهو التوازن الجهاديّ

والتوازن الجهاديّ هنا، ركن من أركان توليد القيم التي تستدعي بذل الجهد النفسيّ والعمليّ المحقّق للعدالة ببُعدَيْها الروحيّ والاجتهاديّ.

وقوّة الثبات بحيث لا يتزلزل المقاوم أمام نفسه وربه ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا

(٣٢) **الخطاب عند السيد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة ٧٠.

(٣٣) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٧٠.

عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٣٤]. كما لا يتزلزل أو يتراجع أمام المخاطر والصعاب التي تعترّض سبيل تحقيق الأهداف؛ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[٣٥].

ثمّ إنّ التوازن الجهاديّ يستدعي إعطاء الأمور والبلاد والعباد حقوقها الخاصّة بها وبمستوى استحقاقها اللازم لها. فلا تطغى الدنيا على الآخرة، ولا شؤون الآخرة تنفي قضايا الحياة الدنيا. ولا يهمل المرء وجهًا من وجوه هويّته وانتمائه الأسريّ أو العشائريّ أو الوطنيّ والقوميّ على حساب التزامه النهج الرساليّ الدينيّ، بالوقت الذي لا يتصنّم أمام أيٍّ منهم، فيجعل من العشيرة أو الوطن أو القوم وكأنّها إله أو هي بحكم الإله. وهذا معنى التوازن الجهاديّ في تسمية المقاومة بـ (المقاومة الإسلاميّة).

نحن في كلمة الإسلاميّة هنا، لا نتحدّث عن مقاومة طائفيّة، نحن نتحدّث عن الهويّة الفكريّة والإيمانيّة لهذه المقاومة. إنّ هويّتها الإيمانيّة تجعلها مقاومة فوق الطوائف، وفوق المناطق، وحتّى فوق الأقطار بالمعنى القطريّ الضيّق. ويجعلها مقاومة تدافع عن الأمّة[٣٦].

إذن، هي مقاومة تدافع عن البيت والأسرة والعشيرة والوطن، ولكنّها لا ترتهن لحساباتهم الضيّقة، في الفرز بين هذه الجهة أو تلك؛ لأنّها جعلت المدى الحيويّ الحاكم لتوازنها، العلاقة مع الله، الذي بيده قيام كلّ شيء، وهو مع كلّ شيء.

فهي تقاتل في سبيل الله، ومن أجل الله وطلبًا لرضا الله واستجابة لأمره. فمع المقاومة الإسلاميّة أنت ستكون في قتالك أكبر من كلّ تلك الحسابات التي يمكن أن ينسجها الشخص، أو عائلته، أو منطقته، أو طائفته، وحتّى بلده والأرض ومن

---

(٣٤) سورة **الحديد**، الآية ٢٣.

(٣٥) سورة **الأنفال**، الآية ٧.

(٣٦) **الخطاب عند السيّد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة ٥٦.

فيها ومن عليها. هنا، تصبح روحيّة المقاومة، عزم المقاومة، إرادة المقاومة، عشق المقاومة، ثبات المقاومة، صمود المقاومة، أفق المقاومة أكبر وأوسع بكثير. لذلك، المنطلقون من خلفيّة إيمانيّة، من خلفيّة إلهيّة هم مقاومون أشدّاء، وفي نفس الوقت رحماء[٣٧].

إذن، هنا وقع التوازن في مجالين:

المجال الأوّل: هو نفسيّ – ذاتيّ، مبنيّ على قاعدة الآية القرآنيّة ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّه وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٣٨]. فرغم شدّة المقاومة في مجابهة العدوّ، والتي تحدّت فيها الدنيا كلّها ولم تضعف. فإنّها

لا يغيب عنها أن تربّي في المجاهدين عامل المحبّة والرحمة. إنّ غياب الرحمة والمحبّة في تربية المقاتل هو الذي يحوّله بعد انتهاء فترة التحرير إلى عنصر تفجير في المجتمع. أمّا حضور بُعد المحبة والرحمة في عمليّة التربية للمقاتل فهو الذي يبقيه عاملًا إيجابيًّا وعنصرًا فاعلًا وحاضرًا لمواصلة عمله لنفس الأهداف التي كان يعمل لها في السابق مع تبدّل الوسائل والوسائط وأساليب العمل[٣٩].

وهذا ما وعاه الجميع بعد تحرير المقاومة الإسلاميّة لغالب الأراضي اللبنانيّة عام ٢٠٠٠م.

المجال الثاني: هو سياسيّ – جهاديّ، إذ ترفض المقاومة الركون إلى المصالح الضيّقة، وتبقي المصلحة الحاكمة على كلّ شؤون الحياة هي الارتباط بالله، لذا فهي لا تضعف أمام الضربات ولا أمام الإغراءات.

كما أنّها تُبدع في إيجاد أرضيّة الانسجام بين واقعها السياسيّ، وآفاقها الجهاديّة، فالمتابع لعمل المقاومة الإسلاميّة في لبنان يلحظ كيف أنّها التزمت الضوابط الوطنيّة في حركتها ومسارها. إلّا أنّها، ورغم ذلك، فتحت سُبُل التواصل بين البُعد الوطنيّ والقضايا القوميّة والإسلاميّة

---

(٣٧) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٥٦.

(٣٨) سورة **الفتح**، الآية ٢٩.

(٣٩) **الخطاب عند السيد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة ٦٢.

المشتركة دون التدخّل المباشر في خصوصيّات الغير. وأخذت تعزّز ثقافة النموذج والتأسّي به. ووضعت نفسها نموذجًا حيًّا لكلّ مقاومة في المنطقة، إذ المقاومة "لا ترى نفسها معنيّة بالأبعاد المادّيّة التي يتنازع عليها الناس، فهدفها واضح، واستراتيجيّتها واضحة، فهي تريد أن تقدّم المثال الحضاريّ للأمّة، الذي يثبت أنّ إرادة المقاومة قادرة على تحقيق النصر"(٤٠).

إذن، هي تقدّم نفسها كتجربة، وهدفها كخيار قابل للتعميم مع حفظ الخصوصيات لدى كلّ تجربة مقاومة.

الركن الثالث: استنهاض الواقع وربطه ببناء مستقبليّ تغييريّ؛ وهذا الاستنهاض يجد أمامه جملة من القيم الواقعيّة والذاتيّة:

١. "في قيم وثقافة هذه المقاومة هناك مكان أساسيّ لرفض العبوديّة لغير الله، ولرفض الظلم والقهر والاضطهاد، وما دام الاحتلال يمثّل كلّ هذه المعاني المشينة. فلا بدّ لمن يحمل قيم الكرامة والسيادة والعزّ والشرف ورفض العبوديّة والذل أن يقاوم، وإلّا فهو خال من كلّ هذه القيم"(٤١).

٢. "في ثقافة المقاومة، طالما أنّك مع الحقّ وتقاتل من أجله لن تبالي أوقعت على الموت أم وقع الموت عليك. لن تقعدك القلّة ولن تعجبك الكثرة"(٤٢).

٣. "في ثقافة المقاومة، ما دمت تؤمن بما تفعل، بقداسة ما تفعل، بعظمة ما تضحّي من أجله، ما دمت تفعل ما تفعل من موقع الوعي والإرادة فلا تبالي بما يقال عنك في مجلس الأمن، أو في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، أو في وسائل إعلام العالم؛ إرهابيّ، مجنون، متخلّف"(٤٣).

---

(٤٠) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٥٧.

(٤١) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٦٠.

(٤٢) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٦٠.

(٤٣) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٦٠.

٤. في ثقافة المقاومة، ليس هناك عدوّ لا يمكن هزمه.

٥. في ثقافة المقاومة، ليس هناك شيء اسمه خسائر.

٦. في ثقافة المقاومة، نعم هناك شيء اسمه تضحيات. هناك إحدى الحسنيَين. هناك مَن يحمل السلاح ويمضي، بينما لا يوجد لديه أدنى شك بالنصر الآتي لإيمانه بالله ووعد الله ولثقته بالله العزيز الجبار.

من كلّ ذلك، تنبع قيم استنهاض الأمّة والناس والواقع بالارتباط بهم، وباعتبار ذلك تكليفًا إلهيًّا، وتقرّبًا إلى الله بما يحب، وما يحبه الله هو هؤلاء الناس وتحقيق مصالحهم.

عندما خرج مجاهدو المقاومة الإسلاميّة ليقدّموا التضحيات الجسيمة كانت هذه خلفياتهم ومنطلقاتهم. هم تربّوا منذ البداية؛ إنكم تدافعون عن كرامة الإنسان وعزّته التي لها مكانة عالية عند الله سبحانه وتعالى. أنتم تدافعون عن أعراض الناس وأولادهم وأحفادهم[٤٤].

وتحقيق الأهداف أصبح أمرًا ممكنًا في ظلّ إرهاصات

نهاية حكم القطب الواحد، وأنّ النظام العالميّ يسير إلى نظام متعدّد الأقطاب، وإذا وصلنا إلى ذلك سيكون للقوى الإقليميّة وللشعوب التي تحترم نفسها وتملك شجاعة التعبير هامشًا أوسع لتحقيق انتصارها وتحقيق وتحصيل حقوقها المشروعة، لكنّ المهم أن لا نسقط أمام الخوف والوهم، وأن نكون واقعيين[٤٥].

إذن، الحكمة والشجاعة هما المطلب القيميّ في التفاعل مع الواقع لتوجيهه نحو المستقبل بأحكام لا تضعف أمام الخوف والوهم. ولا تجازف بمجافاة الواقعيّة الدقيقة في معرفة الواقع، وهي المعرفة القائمة على عقل الخبرة الإيمانيّة.

وفي الوقت الذي اعتبرت فيه المقاومة الإسلاميّة أنّ عملها الجهاديّ

---

(٤٤) **الخطاب عند السيّد حسن نصر الله**، مصدر سابق، الصفحة ٦١.

(٤٥) المصدر السابق نفسه، الصفحة ٥٩.

شعلة تناقلتها الأجيال السابقة، وهي اليوم قد وصلت إليها، فإنّها بهذه القناعة أعادت الحيويّة لتلك التجارب، ووصلت معها بذاكرة استنهاضيّة مندفعة عن وعي استنهاضيّ لواقع يريد أن يرسم للآن، وللمستقبل ثابتة مفادها: "ولّى زمن الهزائم، وبدأ زمن الانتصارات".

وفي مثل هذه الثابتة، استجلاء لقيمة ثقافيّة وسلوكيّة جديدة، أدخلت إضافة مركزيّة على ثقافة الاستشهاد.

ففي الشهادة، رمزيّة للمقاومين ترتبط بمن سبق من الشهداء ولهم في سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين بن عليّ بن أبي طالب، عليه السلام، مثالاً ونموذجًا كاملًا. وهنا مكوِّن الذاكرة الجهاديّة للمقاومة.

والشهداء هم أحياء عند ربهم يرزقون؛ ينتمون إلى عالم هو غير عالمنا؛ ويرسمون لقضايا الحقّ فضاءات الحفظ وقدرة الاستمرار.

وهكذا تكاد أن تتحوّل الشهادة إلى غاية بذاتها.

والشهادة، قدرة إبداع روحيّ وعمليّ على أداء الواجب والتكليف الإلهيّ، في زمنٍ كلّ ما فيه ظلمٌ وأفقٌ مسدود، ونهايات هي بالغالب لصالح العدو. لكن رغم ذلك يتعالى المقاوم فوق كلّ الظروف والحسابات ويرتحل إلى الله على درب الحقيقة ليستشهد.

أمّا وقد بتنا في مرحلة عصر الانتصارات والسعي لتحقيق النصر العظيم، فإنّنا أمام نوع وصنف جديد من قيم الوعي الجهاديّ، وهي قيم لا تتغاير مع قيم الشهادة. لكنّها تضعها في سياقها الموصل إلى النتائج الواضحة.

إذ الرمز التكثيفيّ لم يعد الحسين، عليه السلام، المقتول، بل الشهيد الذي رسم لقائم الحقّ قيامه، ولو في آخر الأزمنة.

وكلّ توطئة لذاك الزمن لا تعبر من بوابة الحسين، عليه السلام، هي

عبث ودخول في خيارات بلا مضمون.

والشهداء الأحياء عند ربهم، هم قادة مسيرة المقاومة التوّاقة لرضا الله والمجاهدة في الله وفي سبيله، روحهم باقية، أهدافهم، شعاراتهم، إرشاداتهم، بحيث يصبح الشهيد هو الشاهد الحقّ على مسير مقاومة قامت بالله من الناس وللناس الذين أحبّهم الله.

وهم لا يخلقون الفضاءات المفتوحة لنصرة الحقّ فقط، بل هم يد الله التي بها ينتصر الحقّ وأهله، ويقيمون وقائع الأحداث ويبنون أركان دولة الحقّ وصولته.

المقاومة في معركة الوعي والذاكرة

في بداية هذه المقال، من المفيد الإشارة إلى نقطتين هامّتين:

النقطة الأولى: إنّ للمصطلح في مجال التداول بين الناس أهمّيّة استثنائيّة؛ ذلك أنّ التعبير عن المخزون النفسيّ والذهنيّ ونقله للآخر إنّما يكون باللغة التي قد تتكثّف أحيانًا فتعبِّر عن فكرة، أو موضوع، أو قضيّة من خلال استخدام المصطلح. هذا، ولا يخفى أنّ طرح مصطلحٍ ما، قد يثير في ذهن المتلقّي أو نفسه حالات خاصّة تؤثّر في نظرته وموقفه. لذا، فإنّ اهتمامًا خاصًّا يحصل عادةً في حفر مصطلح من المصطلحات في القضايا العلميّة أو السياسيّة، بل وفي الحروب حينما يقرِّر المتصارعون خوض حرب نفسيّة بينهم.

ولو أخذنا، للإشارة إلى هذه الحقيقة، أمثلةً من مثل: النكبة، النكسة، الصراع أو النزاع العربيّ – الإسرائيليّ، الانتصار، الانتصار الإلهيّ، لكشفنا أنّ لكلّ واحدةٍ من هذه التعابير الاصطلاحيّة دلالاته الخاصّة التي ألقت في حركة مسار الأمّة وقائع وتأثيراتٍ عميقة لا يمكن تجاهلها.

النقطة الثانية: إنّ توليد مصطلح جديد، أو توليد دلالاتٍ جديدة لمصطلحٍ قديم يُراد استخدامه ضمن مقاصد جديدة أو إضافيّة، إنّما يحتاج لتثقيفٍ مبرمجٍ وواضح حتّى يؤدّي المصطلح وظيفته المرجوَّة.

فعلى سبيل المثال، اعتاد العقل العربيّ أن يتعامل مع مصطلح الثقافة على أنّه مجرّد تراكم معلوماتيّ، أو في أحسن الأحوال، هو عبارة عن نحوٍ من المعرفة التي تؤثّر بالسلوك ولكن السلوك المحايد. ممّا جعل المصطلح دون فاعليّة في الحراك الملتزم، فحينما رصد البعض تداولاً لمصطلح ثقافة المقاومة، أخذ بربطها بمصدر حركة المصطلح؛ وهي حركات النهوض التحرّريّ التي تتصدّرها الحركات الإسلاميّة المقاومة.

فاعتبر أنّ الكلام عن ثقافة المقاومة فيه تسويغ للمنطلقات الإسلاميّة، الأمر الذي دعاه لرفض المصطلح والذهاب للقول: إنّ المقاومة فعل التزام، وأن التأييد الشعبيّ لها إنّما هو تعبير عن مزاج شعبيّ قد يتكيّف مع

القوميّين تارةً، وأخرى مع الإسلاميّين، وثالثة مع الطروحات الوطنيّة.

علمًا أنّ الحديث عن الثقافة أمرٌ يختلف في مضامينه بحسب الأفق الذي ينتمي إليه. وثقافة المقاومة، هي ثقافة ملتزمة بالقضايا المحقّة لعالمنا العربيّ والإسلاميّ في التعبير عن موقفها من مشكلاتها الكبرى كالصراع مع إسرائيل أو مشكلة الاستبداد. وما هذا التماهي الشعبيّ مع ثقافة المقاومة إلّا بسبب ارتباط الذاكرة الشعبيّة مع الوعي الحاضر الذي ولّدته تجارب الحركات الإسلاميّة على صعيد المقاومة. من هنا، فإنّ مثل هذا المصطلح خرج من إشكاليّة الترف الفكريّ الذي كانت تعاني منه ثقافتنا من جهة، كما أنّه خرج من إشكاليّة الأيديولوجيا التي عرّفوها بالوعي المزيّف للواقع لأنّها لم تخرج من الواقع، بل هي أفكار تمّ إسقاطها على الواقع. أمّا مع تجربة المقاومة الإسلاميّة، فإنّ التجربة سبقت التنظير، وحينما تمّ التداول بمصطلح ثقافة المقاومة، كان المقصود لواقعٍ يتماهى مع الوعي بالتجربة الحاضرة والتي لم تجد نفسها في شقاقٍ وخصامٍ مع الذاكرة التاريخيّة.

وعليه، فإنّ من المفيد أن نحدِّد المقصود من مصطلحي الوعي والذاكرة في الدائرة التي نهتمّ فيها.

أوّلًا: المقصود بالوعي: هو التبصُّر بالواقع أو الأحداث أو المعلومات، والنظر لأيّ معرفة برؤية تعكس الموقف الإنسانيّ الذهنيّ والنفسيّ والمسلكيّ من الحقائق والاعتبارات المحيطة.

إذ قد تتعرّض أمّة من الأمم، أو جماعة من الجماعات، أو فردٍ من الناس لحربٍ أو ابتلاءٍ يعمّ جميع الناس دونما تمييز بين مؤمن بالله مثلًا، أو غير مؤمن به سبحانه. إلّا أنّ الوعي لهذه الحرب أو الابتلاء يختلف بين فردٍ وآخر. فالموت وإن كان حقًّا على الجميع، إلّا أنّ البعض قد يعتبره نهاية وجوده، وآخر قد يعتبره مرحلة جديدة من الحياة نحو عالم أسمى، مع أنّ الموت واقع على الجميع.

لذا، فقد يسمّي البعض الحرب سقوطًا في الهزيمة، وقد يراه البعض مشكلة تولّد فرصة للانتصار، بل حتّى الهزيمة الظاهرة على المدى القصير قد يراها البعض انتصارًا للثبات في طريق إحقاق الحقّ، فيسمّي الموت فيها شهادة، أو صدق الوعد الإلهيّ والنبويّ كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[1]. أو قوله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[2].

فحينما تقع الحرب أو البلاء هناك من يضعف وينهزم، وهناك من يصبر ويزداد ثقة بخياراته ويدخل في عمق نفسه وروحه إلى رحمة ربّه، ممّا يدفعه لوعي الواقع بتوازنٍ ورشاد وهداية من ربّه سبحانه.

وهذا ما ألفيناه في لبنان بحرب تموز عام ٢٠٠٦م ممّن رأى في الحرب خسائر وهزيمة، بل حتّى عندما اعترف العدوّ بهزيمته أمام المقاومين وصمود ووعي الناس، فإنّ البعض لم يستطع الخروج من سجن وعي الهزيمة الذي يتملّكه، في الوقت الذي كان فيه الذين يستشهدون ويهاجرون ويقاومون ينظرون للحدث بعين وعي النصر.

والحال، نفس الحال، فيما نراه اليوم في الحرب المفروضة على غزّة؛ من انقسام بين المتفائلين بسبب وعيهم المنتصر، وبين المتشائمين الذين يضعون ارتباكاتهم رصيدًا في حركة العدوّ من حيث يقصدون أو لا يقصدون.

ثانيًا: المقصود بالذاكرة: نحن لا نقصد بالذاكرة في هذا الصدد مجرّد المعرفة بالأحداث التاريخيّة، ولا نقصد بها التاريخ، بل ما نعنيه

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٢٢.

(٢) سورة **البقرة**، الآيات ١٥٥- ١٥٧.

الوعي المتولّد بالتاريخ من منعطفات الأحداث والأحوال الحاصلة فيه، وما رسمته من معالم الشخصيّة الجمعيّة، أو الهويّة الخاصّة بأمّةٍ ما، أو دين، أو مذهب ما. إذ لا شكّ أنّ الذاكرة قاعدة صنع الهويّة الجمعيّة، الأمر الذي يُدخلها ضمن سنن التاريخ الحاكمة في المسير والمصير الإنسانيّ.

وهذا ما نرى فيه إشارة بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾[٣].

من هنا، يمكن أن نسجّل الأمور التالية:

الأمر الأوّل: إنّ الذاكرة هي عبرة التاريخ التي يجعل منها أهل العبرة نموذجًا إرشاديًّا لهويّتهم الجمعيّة، وتعبيرًا فاعلًا عن انتماءاتهم وعلاقتهم بالحياة والزمن الممتدّ بأبعاده الثلاثة من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل، إلّا أنّ الامتداد الزمنيّ هنا ليس مفصولًا بين أجزائه الثلاث. لذا، فإنّ الماضي كما يؤثّر بالحاضر والمستقبل، إلّا أنّ كلًّا منهما يحمل مؤثّراته الكبيرة في طبيعة استعادة وعيش الماضي.

الأمر الثاني: إنّ العلاقة بين الذاكرة والوعي أمرٌ لازم، إذ قد تتعرّض الذاكرة للكثير من الملابسات، منها ما هو دخيل على منطلقات ومسار الواقع التاريخيّ، ومنها ما فيه غلواء في الاهتمام بأمور هامشيّة أحيانًا، ممّا يحتّم تنقية ومراجعة واعية للذاكرة، بحيث يتكفّل الوعي بإخراج ما علق بالذاكرة المؤسّسة للهويّة، كما ويعيد تصنيف الأولويّات الحافظة للقواعد والأصول. وهنا تنبع إشكاليّة العلاقة بين عقليّة تسلّفيّة ماضويّة، وأخرى نقديّة فاعلة في الحاضر.

الأمر الثالث: إنّ تقييم التاريخ عبر الوعي شرط لحفظ الذاكرة التاريخيّة في فاعليّتها. فلو كان التاريخ عرضةً لإخفاقات ظالمة، فإنّ الهويّة قد تنزوي في عقد الانكماش الدائم، بحيث لا ترى حتّى في بوارق الضوء إلّا

---

(٣) سورة **محمّد**، الآيتان ١٠ و ١١.

بؤرًا من الظلاميّة والقهر السلبيّ.

أمّا لو استعاد الوعي مسك زمام المبادرة عبر تحمّل المسؤوليّة، فإنّه يجعل من هزائم التاريخ كالنكبة وسقوط فلسطين، مثلًا، حافزًا نحو تجديد الحياة وحيويّة الفاعليّة والمقاومة. إلّا أنّ الأصل في كلّ ذلك هو في كيفيّة الفرز بين الوعي والتراكم المعلوماتيّ السلبيّ للتاريخ والحاضر.

وهنا، لا بدّ من الانتهاء بالقول: إنّ قضيّة القدس تمثّل وحدة فاعليّة الذاكرة بالوعي عند الأمّة. من هنا، فإنّ قضيّة المقاومة على طريق القدس تحتّم رسم استراتيجيّة شاملة، وعلى كلّ صعيد، في مواجهة هذا الواقع المصيريّ، بحيث يكون الخيار العسكريّ المقاوم هو رأس الحربة في امتداد جسمها المقاوم على كلّ صعيد مجتمعيّ وسياسيّ وثقافيّ لصناعة حضارة على شاكلة القدس التاريخ، والقدس الوعي، والقدس الجامعة للأديان ولبني الإنسان من أهل الضمير الحرّ والشريف.

وما دعوتنا لإطلاق النقاش الواسع في هذا الجانب إلّا من باب المشاركة المفتوحة لكلّ حرٍّ في هذا العالم لتأسيس ما يدفع عن القدس وغزّة وفلسطين الضيم، ويبعد الشقاق بين أهل القضيّة، إذ وعي الأولويّات في الصراع شرط انتصار أكيد.

فمنذ أن أصيبت الأمّة بأصل كيانها ودورها وموقعها بأزمتها الحضاريّة الكبرى، ارتكس الوعي لديها لينتقل من الصدمة إلى الحيرة، ومن القلق إلى الركون للوهن والهزيمة، حتّى إنّ خطابها انقسم إلى ما فيه تنفيس لعُقد النقص بتمجيد الماضي ولعن الحاضر أحيانًا، أو التنكّر للماضي والتاريخ والتراث ونسبة كلّ الانحطاط إليه أحيانًا أخرى. فباتت بلا ذاكرة مضيئة أو فعّالة. وإذا ما كانت الذاكرة هي الوعي الموصول بالتاريخ، بل هي الوعي في حركة التاريخ، فمن الطبيعيّ أن يصيب وعي الأمّة بذاتها، حينئذٍ، التجويف والانحطاط والركون إلى الضعة والفراغ والهوان.

إلّا أنّ ذلك لم يحجب الحركات الإسلاميّة والقوميّة فيها عن السعي

لاصطناع مركّبات من النظريّات والمفاهيم والأهداف بغية العمل على استكشاف الذات والواقع، ودفع الأمور نحو مواجهة عوامل الانحطاط ومعوّقات النهوض. وهذا ما أسفر عن فترة من تجربة الحياة العامّة في مجاهدات هذه الأمّة أطلقت عليه اسم "عصر النهضة"، برز فيها الإصلاح الدينيّ والفكريّ والسياسيّ، كما برزت حركات التغيير والإصلاح عن اتّجاهات إسلاميّة وقوميّة وغير ذلك. وكانت هذه الطروحات، رغم ما تنطوي عليه من غنًى في كثير من أبعادها ومضامينها، عُرضة لانتكاسات في دورها ووعيها بفعل روح الاستبداد والتبعيّة الحاكمة على أنظمة الحكم والبيئة المجتمعيّة. كما وبفعل الاحتلال الإسرائيليّ وامتداداته وتأثيراته التي يتشارك فيها مع دول الاستكبار العالميّ بقيادة الولايات المتّحدة الأميركيّة حتّى بات أيُّ مسٍّ بالاحتلال الإسرائيليّ، أو تصدٍّ له هو مواجهة للسياسات العالميّة وملحقاتها من أنظمة الاستبداد.

أضف إلى أنّ وعيها ودورها لم يرتكز في مجمل قضاياه الكبرى على معيار التجربة الحيّة والفاعلة، إذ كانت هذه الطروحات تعمل على تقديم برامجها من خلال بياناتها التأسيسيّة التي يستبق فيها المفهوم والفكرة والتجربة، ممّا كان يضطرها أحيانًا إلى ليٍّ عُنق الواقع لينسجم مع صناعة النظريّة، وهذا ما أوجد انفصالات وتمايزات بين هذه الحركات، وبين المحيط والناس من حولها. إلى أن جاء الخيار العسكريّ بمقاومة الاحتلال، باعتبار الاحتلال لبّ وأصل كلّ الأزمات التي تعيشها أمّتنا وعالمنا العربيّ والإسلاميّ بحكوماته وشعوبه. ممّا اقتضى الدخول في فعل يلتزم المقاومة كأصل لا يحتاج إلى مسوّغات من المفاهيم؛ بقدر ما يحتاج إلى حسٍّ إنسانيٍّ في تلمّس مكامن الخطر، وجرأة في مواجهة الواقع، وإرادة في تغيير المسارات.

ولمّا تفاقم واستعاد إحساس الأمَّة – بفعل خيار المقاومة – عناصر الثقة بالذات وبالقدرة على التحدّي والنجاح، تشكّلت عندها منعطفات من التأمّل

والتبصّر في العبر أخذت تولّد مضامين وعيها الموصول بتاريخها، حتّى بات كلام الوحي المنصوص في صفحات القرآن العزيز، ذاكرة حياة تتنزّل على صفحة القلب لتُشعل فيه طاقة القدرة والإرادة والحكمة والشجاعة الدافعة بالوعي نحو حياة جديدة يتّصل فيها المقاوم بمصدر كلّ قوة، بالله سبحانه الذي إذا عظُم في القلب صغُر ما دونه من أرباب ودول وسياسات أمرٍ واقع. وباتت حركة المقاومة وكأنّها تلازم رسول الله محمّد، صلّى الله عليه وآله وسلّم، حينما يخاطبه وحي ربّه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾[٤] لتنفض عن نفسها السُبات من غفوة الغفلة التي كانت فيها، والتي كانت تتدثّر فيها بالركون إلى السلامة، لتقوم قومة محمّديّة، والقومة قيمة، وقيمة القومة هنا مقاومة تُنذر من كان حيًّا أنّ الحقّ أحقّ أن يُتّبع، وأنّ من جعله الله حرًّا يأبى أبدًا أن يُستعبد.

فتستعيد المقاومة لوعي الأمَّة طبيعة عيشها مع النبوّات كمصدر للغنى والفاعليّة، ووصال بين الأمم وحقوقها الإلهيّة والإنسانيّة المشروعة. وليزحف الوعي وأهل الوعي نحو المستقبل تحت وطأة قوله سبحانه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[٥].

لترسم معالم الحركة نحو بناء مستقبل يقوم على مضمون التكبير؛ والتكبير هو شعارٌ يلهج به اللسان ليؤكّد في القلب أنّ الزمن لله، وأنّ أيّام الانتصار هي أيّام الله، وأنّ كلّ إنجاز هو رحمةٌ من الله مفتوحة للعباد طالما هم صادقون في مقصدهم الأكبر الذي هو الله، مهاجرون من رجز الذنب والتبعيّة والعبوديّة إلى صفاء الحقّ والقسط وتحقيق العدالة، باذلون لا يستكثرون ما يُضحّون، ولا يمنّون بواجب، إنّما كان البذل فيه لوجه الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، ثمّ هم الصابرون بالله ولله على كلّ أذيّة، وكلّ مواجهة، وكلّ انتكاسة، وكلّ تحدٍّ.

---

(٤) سورة المدثر، الآيتان ١ و٢.

(٥) سورة المدثر، الآيات ٣- ٧.

وأهل الصبر في الله هم أهل العبادة الحقَّة، الذين يتحوّل جهادهم وشهادتهم وبذلهم وحركاتهم وسكناتهم وأقوالهم، إلى عبادة في محضر الحقّ وربّ الحقّ سبحانه.

بمثل هذه الروح وهذا الوجدان، كان قصد السبيل المسلّح، وكانت المقاومة وعيًا أعاد إلى ثقافة الأمَّة مفردات كادت أن تنساها من مثل أنّ الشهادة هي ثقافة الحياة العزيزة، وأنّ الجهاد هو عقل المجد ونفض الضعة والهوان، وأنّ القدرة هي صناعة القوّة بروح الحكمة والشجاعة. أُعيدت إلى الأمَّة ثقافة أنّ التاريخ ذاكرة حيّة تسري في عروق وعي الحاضر كشرط، بل علّة لغايةٍ هي بناء المستقبل. ففي دين المقاومة، سرّ خلود الشهادة الحسينيّة إنّما يثبت في ضمير الأمَّة بتوقها العاشق لمستقبل خلاصيّ مهدويّ تعايشه المقاومة في دينها وروحها وثقافتها، وعيًا بنّاءً يزاوج بين الشهادة والنصر كسبيل صراطيّ أوحد يحقّق معنًى وواقع الغلبة، كما يحقّق معنًى وواقع الفلاح.

وإذا كانت الغلبة هي القدرة الحكيمة الشجاعة على كسر إرادة البغي وتفتيت عناصر التسلّط والعدوان، إذا كانت الغلبة هي الوعي الواثق بنصر الله في استرجاع الأرض وإلحاق الهزيمة بإسرائيل. فإنّ الغلبة أيضًا هي الشرط الجامع لعناصر تحقيق الفلاح ببناء الأوطان وإعمار البلاد وتكميل العباد.

والفلاح في المصطلح القرآنيّ هو اللحظة التي يصل فيها المقاوم في قضيّته إلى إيقاع اليأس في قلب عدوّه منه، كي لا يعود أهل المقاومة والحريّة المستقلّة يخشون أحدًا إلّا الله. والخشية من الله إنّما تكون في وعي العلاقة الفرديّة بين روح المقاوم العابد وربّ العزّة سبحانه ليعيش العبد رقابة الله الدائمة في فكره ووجدانه وذكره وسلوكه. كما تكون خشية الله في علاقة الجماعة المقاومة الحُرَّة برعاية الله في خلقه سبحانه. فالفقر عدوّ الله، كما أنّ القهر والظلم والاحتلال والجهل والتخلّف هي معايير الجاهليّة

الجَهْلاء التي يتربّى عليها أهل جماعة المقاومة في ذاكرتهم ووعيهم. إنّها الصفحة السوداء التي عمل الأنبياء، كلّ الأنبياء، وخاتمهم رسول الله محمّد، صلّى الله عليه وآله وسلّم، على تمزيقها بإرادة التوحيد. وهكذا تصبح كلّ مقاومة تعيش مثل هذا الوعي، وهذه الذاكرة هي استجابة لنداء الأنبياء وجهاد الأولياء.

إنّ فضاء المقاومة المعرفيّ استطاع أن يُدخلنا عهدًا من روح الوعي، ووعي الروح. وهو عهد نتطلّع فيه نحو بناء حضارة تستقيم بغلبة سلاح القدرة الحكيمة على نار القوّة المستبدّة، لتُتاح فرص بناء الفلاح على استقامةٍ من الحقّ ونشر العدل.

الجهاد والمقاومة

١- الجهاد والمقاومة في الإطار الإسلاميّ

جرت العادة أن يتمّ بحث موضوع الجهاد على المستوى الفقهيّ ضمن سياق المجتمع الإسلاميّ، بل وضمن سياق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إذ إنّ الجهاد حركة عسكريّة تبتغي حفظ حركة الرسالة وبنية مجتمعها الخاصّ، والدفاع عن حياض أرضها، وكسر العقبات الحائلة دون انتشار حركة الرسالة. لذا، فإنّ أهداف الجهاد تكاد تقتصر على الجانب الإسلاميّ وحده، ممّا يجعل القائمين والقيّمين على فعلها هم من المسلمين وحدهم.

بينما يختلف الموضوع في بعض وجوهه حينما تكون الحركة هي (المقاومة)، إذ تدخل حينها مفردات الحدود الوطنيّة، والمواطنة، والدفاع عن الحقوق المدنيّة، كأصول محترمة ومقدّسة ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾[1]. فيصبح سبيل الله في المقاومة إنّما يتمثّل في سبيل الدفاع عن عباد الله وحقوقهم المشروعة.

وهذا ما يسمح باتّساع الجغرافيا الدينيّة والمذهبيّة والفكريّة للخائضين في ميدان المقاومة، كما يسمح لمباشرة أهداف لا تلتزم خصوصيّة الانتماء الدينيّ أو المذهبيّ وحده شرط أن لا تخالفه في قيمه. ممّا يعني أنّ الجهاد المتعارف (المقاومة)، في الوقت الذي يقوم فيه على حاكميّة الشريعة والفتوى المولّدة للقيم، تقوم على حاكميّة الشريعة والواقع والقيمة الدافعة نحو ظروفٍ جديدة لواقعٍ يبني موضوع الفتوى، والذي يوجب على المرتبطين بها اعتماد حراك اجتهاديّ واسع يطال فهم الواقع وروح الدين ومدّيات الشريعة وفقهها.

لذا، فإنّ إنسانيّة الإنسان هنا هي المرصودة بفعل إسلاميّة المقاومة، وتحرير قيم حريّة واستقلال وعدالة واقعه هي المطلوبة كغاية قيميّة تندرج ضمن سلّم الخط الإرشاديّ العامّ الذي ابتُنيت على أساسه الشريعة

(١) سورة **النساء**، الآية ٧٥.

الإسلاميّة السمحاء. ممّا يجعل حبّ الأهل والوطن والكرامة، عين حبّ الله والرسالة والرغبة في نيل ثواب الجنّة والشهادة.

يبقى أنّ هذا الأمر سيفرض علينا تساؤلين أساسيّين في الحقل الإسلاميّ:

التساؤل الأوّل: يرتبط بطبيعة العلاقة بين المقاومة والجهاد الفقهيّ المتعارف، وبالتالي فما هي العلاقة بين المقاومة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وهذا التساؤل تأتي ضرورته إسلاميًّا؛ إذ ما لم تكن المقاومة كفعل جهاديّ تنتمي إلى أفق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأفق الجهاد المتعارف فقهيًّا، فإلى أيّ حقل شرعيّ تستند إذن؟ ومن المعلوم، أنّ أيّ فعلٍ أو حراكٍ لم يتّكئ على ركيزة شرعيّة فهو لا ينسجم مع سياق الإطار الإسلاميّ القائل: إنّ ما من شيءٍ إلّا ولله فيه حكم. وعليه، فسيكون خارج الإذن الإسلاميّ أو المشروعيّة الدينيّة. فهل هو تكتيك يخوضه المسلمون وصولًا لتحقيق فعل الجهاد الفقهيّ؟ أم أنّه أسلوب من أساليب العمل الجهاديّ، أم أسلوب دعويٌّ يراعي خصوصيّات الواقع المعاصر؟ أم هو أفقٌ فقهيّ جهاديّ أدخل قيمًا وأحكامًا جديدة للفقه الجهاديّ، أولدها الواقع الجديد بمتغيّراته ومتطلّباته؟

بل يصحّ السؤال في حقّ المقاومة، هل هي منطقة تواصل بين الفقه الجهاديّ ومتطلّبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوليدات الواقع الجديد، بحيث إنّنا بتنا أمام ضرورة جديدة لفتح نافذة، بل بابٍ فقهيٍّ جديد عنوانه "فقه المقاومة"؟ وهذا ما قد يفتح المجال أمام تمدّد مفهوم المقاومة وفقهها إلى دوائر حياتيّة تشمل ما هو أوسع من دائرة التحدّي العسكريّ المباشر، وليطال الخيار الحضاريّ العامّ لمستقبل الشعوب المستضعفة، وقيام العالم على أسس من الحقّ والعدالة في الانتظامات السياسيّة والاقتصاديّة والمجتمعيّة.

التساؤل الثاني: هل يمكن للمقاومة التي يخوضها مسلمون، أن

تتشارك في فعلها وانتظامها مع جهات وجماعات غير مسلمة، بل غير ممذهبة بمذهبٍ معيّن؟ وهل بالإمكان أن تعتمد سياسات وأهداف تتّسم بحسب الفهم العامّ بأنّها مدنيّة علمانيّة؟ أم أنّ المقاومة هي بحالة من التماسك الحزبيّ والفكريّ الواحد، وإن كان مرنًا في تعاطيه الخارجيّ مع جماعاتٍ وأفكارٍ أخرى؟

وهنا، لا أقصد من هذا التساؤل التوصيف لواقعٍ قائم، بل أودّ الاستفادة من هذا الواقع القائم لمعرفة أنّ الظاهرة فيه هل هي نابعة من ضرورات عملانيّة يفرضها الواقع اللبنانيّ، إن بوجهها القابل للانفتاح على الآخر، أو بوجهها التنظيميّ المبنيّ على وحدة الشريحة المذهبيّة المنضوية في حركة المقاومة؟ وقد يكون نفس الكلام أيضًا يصحّ على حركة المقاومة في فلسطين.

وهذا ما يفرّع جملة من التحدّيات:

التحدّي الأوّل: هل كُتب على المقاومة أن تبقى مسيّجة بسياج المذهبيّة بسبب الضرورات الأمنيّة والفاعليّة النشطة في مواجهة الأمور؟

التحدّي الثاني: هل بإمكانها أن تولّد امتدادًا، ولو مدنيًّا في حراكها، يتجاوز مثل هذا الأفق المذهبيّ؟

التحدّي الثالث: هل هناك اختلاف في البنية السياسيّة لحركات المقاومة يختلف عن بنيتها العسكريّة، بحيث نكون مع مقاومة تهدف حينًا لاستلام السلطة، وأخرى مع مقاومة تؤثّر عميقًا في مسارات السلطة في الوقت الذي تريد أن تبقى مقاومة، علمًا أنّ المتعارف عليه في مثل هذه الحركات خروجها عن كونها مقاومة حينما تتسلّم السلطة؟ أم أنّنا هنا أمام ابتداعٍ جديدٍ لمنظور جهاديّ وسياسيّ مختلفٍ، اسمه المقاومة؟

التحدّي الرابع: لو تسلّم رجال وحركات المقاومة السلطة، فهل ينتقلون حينها لفقه الجهاد في الدفاع عن الأرض وتصبح الاتّجاهات الإسلاميّة خارج السلطة، بل وخارج المشهد السياسيّ؟ أم أنّ فقه المقاومة، خاصّة

منها تلك القائمة في المجتمعات التعدّديّة، يحتضن القابليّة والإمكانيّة الجديدة لتأسيس مفاهيم فقهيّة جديدة في فهم الحكم والسلطة، الحاكميّة والدولة، وإدارة السياسة والمجتمع؟

٢- خيار المقاومة والتحرير

يعتقد البعض أنّ المقاومة مجرّد خيار ينتهجه المقاومون. علمًا أنّ المقاومة حقٌّ طبيعيّ مركوز في أصل حفظ الحياة والكرامة وممارسة الحريّة. وبالتالي، فإنّ نزع روح المقاومة من ثقافة أيّ إنسان أو شعب هو نزع لحقيقة الإنسانيّة الحيّة العزيزة الحرّة فيه. وعليه، لا أوطان ولا بلاد ولا عباد خارج منظومة حقّ المقاومة وقيم وجوبها التي أطلقتها الأديان والضمائر الإنسانيّة. وفعل مقاومة العدوّ والظالم والمحتلّ والمنتهك لحقّ الحياة وقرار مجابهته بفعل المقاومة؛ هو خيار وشرف لا يستحقّه إلّا الرجال، ولا يقدر عليه إلّا أهل البصيرة والعزم وقهر الموت بالخلود. وهؤلاء هم الذين تصالحوا مع أنفسهم ومع آلام شعوبهم، فأعاروا الله جماجمهم، ونظروا إلى أقصى التحدّيات والمخاطر ليصنعوا السلام بالشهادة وليبنوا الأوطان والاستقلال بالتحرير. إنّهم أمَّة إحقاق الحقّ التي تتجاوز حدود المذهبيّة والحزبيّة والمناطقيّة الضيّقة ليكونوا مَعلمًا لكلّ مسترشد وباحث عن مستقبل عزيز.

إنّ أهمّيّة هذه المقاومة، إنّما تنبع من انقلابها عن عقال صنميّة الذات نحو مواجهة مفتوحة مع الآخر المعادي الذي رأت فيه الشرّ كلّه، وأطلقت عليه تارةً اسم الغدّة السرطانيّة، وأخرى اسم الشرّ المطلق، وثالثة اسم الشيطان. واعتبرت أنّ كلّ آخر هو قريب بالقياس إلى مرارة العداوة التي أفرزها العدوّ الإسرائيليّ ومن يحيك من خلاله فعل استنزاف الأمّة.

فإذا كان كلّ صاحب ضمير حرّ، لأيٍّ معتقدٍ انتمى أو بأيّ ديانة التزم، هو صاحبٌ ورفيقُ قضيّة عنوانها الإنسان في قيم الحريّة ومجابهة باطل

الاستبداد، فإنّه ومن بابٍ أولى أن يكون كلّ مسلم، ولأيٍّ اجتهاد عاد، رفيقًا وأخًا في طلب الهداية والإسلام، بما تعني الهداية من اجتثاث لمنظومات الضلالة والشرك المبنيّ، حسب الأدبيّات الإسلاميّة، على قيم الظلم. فالإسلام حينما اعتبر أنّ من بين رأس القيم على جادّتي سُبُل الحياة "الظلم بما هو شرّ"، و"العدل بما هو خير"، افترض أنّ العدل هو الهداية، والهداية هي الإيمان، والإيمان هو التوحيد. بينما صنّف الظلم بأنّه كفر؛ والكفر هو استبداد الباطل بالحقّ عبر نفيه، ونفي الحقّ هو الشرك العظيم.

لذا، ومن هذه القناعة الثقافيّة التي ألهبتها المقاومة الجهاديّة في مكوِّنات الوجدان الإسلاميّ بفعل الفداء، والجهاد، والشهادة، والوضوح في تحديد العدوّ ومسار الصراع، كانت المقاومة خيارًا مؤهّلًا لإحداث حركة تغيير في واقع التشرذم القائم بين جماعات الأمّة. إنّه الخيار الذي لا يحتاج أصلًا إلى تعدّد الخصوصيّات المرنة في ملاقاة المختلف، والتمييز بينه وبين الآخر المعادي على قاعدة ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٢].

فالشدّةَ صنو الرحمة في سمات شخصيّة الأمّة المهتدية برسول الله، صلّى الله عليه وآله وسلّم، حيث إنّ أصحاب هذه السمات هم بمعيّة محمّد، صلّى الله عليه وآله وسلّم، ضمن أيّ زمن كانوا، أو في أيّ مكان انوجدوا. وإذا كانت الشدّة على الكافرين هي التي تستوجب العزّة حين نشوب الحرب معهم، فبمقدار هول الشدّة ينبغي أن يكون التواضع في تراحم أهل الإخاء، بحيث يعبِّر المسلم للمسلم عن علاقة التراحم ولو بنحوٍ من إذلال النفس أمامه، إذ في مثل هذا الذلّ الرحيم تكمن مقوّمات القدرة والعزّة الحقيقيّة بين أهل الإسلام، في أساس بنائهم الاجتماعيّ وفي مقام قربهم من الله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

(٢) سورة **الفتح**، الآية ٢٩.

الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

ولو أردنا اليوم أن نستحضر تجربة هي الأغنى والأقدر على عبور حدود المذاهب، بمعايشتها اختلاجات قيمنا الدينيّة الواحدة، ومناطق الوجدان الإنسانيّ المفعم عندنا بالألم والرجاء، لألفينا المقاومة في تجربتها الحيّة على امتداد هذا الوطن الإسلاميّ وبتلاوينها الناسجة لإرادة التحدّي وقدرة النهوض، هي التعبير الأنصع والأفعل في مثل هذا الحضور الحيويّ الحيّ.

واسمحوا لي هنا القول: إنّ المقاومة في تجربتها الحيّة النابعة من مقاصد الإسلام وقيمه العليا، المؤهّلة على استثارة اجتهاد فكريّ قد يأذن بولادة إرهاصات لمعالجات جديدة في فقهنا السياسيّ الذي يلحظ واقع الأمّة بما هي عُرضةً لمخاطر وإشكالات واحدة. إذ فارقٌ بين أمة عاشت الأصل والهامش في بنائها الفقهيّ، وأمّة صار لزامًا عليها أن تخرج للدنيا بصدع رساليّ واحد للواقع المحيط بها.

٣- خيار المقاومة طريق الوحدة بين المسلمين

تمثّل الوحدة قاعدة من قواعد الناظم الإسلاميّ العامّ، الذي يندرج ضمن ما يصحّ تسميته بروح الشريعة السمحاء، أو إن شئت فقل: صبغة الله. وكلّ ما يصدق عليه عنوان القاعدة الدينيّة في شريعة الإسلام، فإنّه يسري إلى كافّة أبعاد هذا الدين في منطلقاته العقديّة، ووجدانه الأخلاقيّ والمعنويّ، والتزاماته المسلكيّة الواقعة تحت دائرة الأحكام الفقهيّة.

وبقليلٍ من التبصّر في أصل الوحدة ومفادها الإسلاميّ، فإنّا نلحظ أنّ الكتاب العزيز لطالما ربط بين التوحيد بما هو الأصل الناظم للدين،

(٢) سورة المائدة، الآية ٥٤.

كلّ الدين، والوحدة بين المسلمين بما هي قاعدة وسنّة انتظام جماعة أهل الله. وعلى هذا، جاء قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٤]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[٥].

فإنّ حقيقة العبوديّة وحصن التقوى إنّما يترتّبان على مثل هذا الربط بين التوحيد في الولاء والوحدة في الانتماء. ذلك أنّ أصل النظام العامّ سيتعرّض للخطر والفوضى لو كان قائمًا على غير أصل الوحدانيّة في المسار الوجوديّ، بل والحياتيّ ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٦].

فالنظام الكونيّ قام على أصول من موجبات الوحدة في النَظم المرتبط بوحدانيّة المنظِّم سبحانه وتعالى. وإذا كانت كلّ حركة في الحياة وارتباط الموجودات تتسانخ بالضرورة مع أصل مصدرها، فاللازم أن يكون النموذج الإرشاديّ لأيّ اختلاف هو الوحدة في النظم. لهذا استوجب الارتباط بالله سبحانه، والتسليم بالولاء له، جعل المجتمع أو الأمّة قائمة على أصل التوحيد حتّى لو اختلفت في أعراقها واجتهاداتها.

ولمّا كانت طبيعة البشر تنزع في تعبيرها عن خصوصيّاتها منزع التمذهب الحادّ والتحزّب الصلب، فإنّ بناء العلاقة بين أصحاب الخصوصيّات على أسس من الوحدة يحتاج إلى جهد نفسيّ وروحيّ وجهاد مستمرّ على قيم التقوى الروحيّة والسياسيّة للأفراد والجماعات.

بناءً عليه، فإنّ حفظ التوحيد في حياة الأمّة يحتاج إلى تقوى روحيّة وسياسيّة في نظام علاقاتها، يضمن فاعليّة التوحيد في جسد الأمّة الموحِّدة؛

---

(٤) سورة **الأنبياء**، الآية ٩٢.

(٥) سورة **المؤمنون**، الآية ٥٢.

(٦) سورة **المؤمنون**، الآيتان ٩١ و٩٢.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّه مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[٧].

وبدون هذه التقوى لا وحدانيّة عابدة، ولا وحدة ناظمة لقانون الأمّة وتشريعاتها ومكامن القوّة والتأثير فيها وعندها. إلّا أنّ الوحدة التي تحتاج إلى مثل هذه التقوى، تحتاج أيضًا في إقامة أعمدتها لبرنامج واضح في مسار الأمّة، وإلى أهداف عملانيّة تتحرّك بموجبها في تصادمها مع الوقائع والأحداث والمجريات التي يُعبِّر عنها **القرآن الكريم** بموارد الابتلاء والامتحان الإلهيّ. وإذا كان الجهاد في حياة المسلمين وتاريخهم منذ رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، إلى أزمنة مديدةٍ هو التعبير عن التكتّل بين الجماعة المسلمة في خوض غمار تجربتها الرساليّة، التي استدعت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، عليه السلام، الإعلان بأنّه لو غزت الروم بلاد المسلمين لوضعتُ يدي بيد معاوية.

وهي نفسها التي دعت الإمام زين العابدين، عليه السلام، وبرغم كلّ ما لاقاه وأهله من حكومة الأمويين والمجتمع المسلم آنذاك، لإقامة دعاء أهل الثغور طلبًا لنصرة جيش البلاد الإسلاميّة حينما تعرّض الوضع الإسلاميّ لخطر المواجهة مع الروم. فإنّ الواقع الذي يلفّ عالمنا الإسلاميّ اليوم، يقضي بضرورة اعتماد سياسة مواجهة واضحة وفعّالة ضدّ الهيمنة التي تتعرّض لها شعوب المسلمين وبلدانهم؛ وهي هيمنة وضعت البلاد تحت سطوة النفوذ الغربيّ المباشر أو غير المباشر، كما أنّها حوّلت الكثير من الحكّام إلى أدوات طيّعة بيد الاستكبار العالميّ، وقيّدت الشعوب الإسلاميّة بعقد الجهل والخوف والتخلّف، ممّا فرض على أصحاب الهويّة الإسلاميّة تحدّيات ثلاث:

التحدّي الأوّل: مواجهة الاحتلال أو النفوذ الغربيّ في مناطق العالم الإسلاميّ، وذلك عبر حركات تحرّريّة وطنيّة تعمل على استعادة الأرض

(٧) سورة **الأعراف**، الآية ٦٥.

واستقلال الأوطان.

التحدّي الثاني: مجابهة سياسة الاستلحاق بالغرب، والتعاطي الاستبداديّ الذي تمارسه أنظمة الحكم بملوكها ورؤسائها مع الشعوب المقهورة لقمعها في مطالبها المحقّة، وقمع رغبتها بنيل حرّيتها المكبوتة. وهنا، تتوالد سياسة المعارضة والبرامج الواضحة الساعية لتحقيق الذات والانتماء الوطنيّ والقوميّ السليم.

التحدّي الثالث: وعي الشعوب لأزمتها الوجوديّة الحادّة، التي أوّل ما تواجه فيها الغدّة السرطانيّة إسرائيل، ومن خلفها ممّن آلوا على أنفسهم منع الشعوب الإسلاميّة من الصحوة والسعي لتحقيق الذات والكفاية، كما ووعي هذه الشعوب على أولويّات الأهداف وأولويّات المصالح والإجراءات اللازمة لتحقيق الأهداف؛ لأنّ التشتّت الحاصل على المستوى المذهبيّ والسياسيّ بين جماعات الأمّة إن لم يُحصَّن بوعي الأولويّات، فإنّها ستبقى عُرضة للاستغلال والاستنزاف الذي يمارسه العدوّ عبر التحريض الداخليّ بين جماعات الأمّة.

ولعلّ الإجراء المحقّق للأهداف، وعلى صعيد المستويات الثلاث من التحدّيات، إنّما يتمثّل بالتزام خيار فعل المقاومة وثقافتها. إذ لو أردنا أن نقيِّم كلّ التجارب التي عملت على إفشاء روح الحوار أو الوحدة بين الجماعات، لألفيناها قد ضلّت الطريق عند كلّ محاولة وحدويّة أو حواريّة تفتقد لالتزامها قضايا حسّاسة جامعة بين الأطراف. فمهما أحسنّا إقامة الملتقيات والدراسات والتجمّعات، فإنّها ما لم تخرج عن المألوف من الكلام المنمَّق، والاهتمامات الظرفيّة، فإنّها ستصطدم بواقع التصنُّم المذهبيّ الذي تعايشه الجماعات المذهبيّة ضمن خصوصيّاتها.

ولعلّنا لا نجافي الحقيقة لو قلنا: إنّ المقاومة اليوم، بما هي خيار التزام، وثقافة مجابهة وتحرير وشهادة، وحدها هي التي شكّلت في عصرنا الحاليّ صدمة جدّيةً لهذا الواقع الملتفّ على نفسه بالتكرار والدوران حول الذات

والأفكار والإرادات.

كما أنّ الاحتلال واغتصاب الحقّ لم يميّز يومًا بين إسلام ومسيحيّة، وبين سنيّة وشيعيّة ودرزيّة، وبين دينيٍّ وآخر علمانيّ وثالث قوميّ عربيّ، أو إيرانيّ أو إلى ما هنالك. فأيّ شيء يبقى لأفكار الجماعات وأديانها وانتماءاتها حينما تفقد أصل الحقّ في وجودها الإنسانيّ الحرّ. وفعل المقاومة هو استرجاع هذا الأصل في الوجود الذي بموجبه يمكن للمسلم أن يعيش إسلامه على تنوُّعه، وللمسيحيّ أن يعيش مسيحيّته على تنوّعها، فكيف نتقاتل ونختلف على ما هو أصل وجودنا. إنّ اليد الجامعة لشجاعة موسى، وحبّ عيسى، وإرادة ورحمة محمّد إنّما هي اليد التي قاتلت وما زالت تقاتل في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، لا يريدون ببذل المهج إلّا وجه الحقّ وإقامة صرح العدالة الشاملة لكلّ مستحقّ دونما تمييز.

٤- واقع المجتمع اللبنانيّ

يعيش لبنان ومنذ فترة ما بعد الحرب الداخليّة فيه، مراحل من التشكّل في صورته السياسيّة والمجتمعيّة. وقد لعبت الحرب أو الاجتياح الذي قامت به إسرائيل عام ١٩٨٢م دورًا مفصليًّا في رسم صورة هذا التشكّل، الذي كانت أوائل افرازاته الرمزيّة، تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ. صورة السعي لإرساء منطق التصالح ولو عبر تأكيد الهدنة مع إسرائيل.

ب. صورة الرفض السياسيّ لهذا المنطق عبر مدّ جسور العلاقة مع المحيط العربيّ، والذي كانت فيه سوريا محور هذه العلاقة.

ج. صورة الخيار المقاوم ميدانيًّا – بالفعل العسكريّ- لإسرائيل.

وتأرجحت أقسام التشكّل هذه إلى عام ٢٠٠٠م ليُتوّج التحرير نجاح خيار المقاومة التي احتضنها مجتمعها. ومُذاك أخذ المجتمع اللبنانيّ يتحسّس رغم تعداد طوائفه، وخياراته، إمكانيّة تحقيق الانجازات الخاصّة،

عبر شعارات وتحرّكات مجتمعيّة؛ وإن تباينت في مطالبها وأهدافها؛ إلّا أنّ الجامع فيما بينها، كان إيمانها بدور المجتمع المدنيّ في رسم صورة المستقبل الوطنيّ.

وهذه النتيجة جاءت في وقتٍ كان فيه أرباب السلطة في لبنان من ممثّلي إمارات الحرب والإقطاع والمال، وبدعم من الخارج، يأخذون خيار بناء سلطة الدولة المركزيّة اللبنانيّة.

وهنا لا يعنينا في هذه المقالة أن نتناول الشقّ السياسيّ لهذا الواقع؛ بل ما يعنينا هو ما أفرزه من إشكاليّة استجدّت بشكل حادّ في هذا البلد الباحث عن مستقبله، والتي تمثّلت بأمورٍ منها:

أوّلًا: إشكاليّة العلاقة بين الدولة والمجتمع المدنيّ. فالسلطة الناشئة تقف اليوم أمام مجتمع مدنيّ عبّر عن ذاته بجملة اجراءات طبيعيّة تتمثّل بمؤسّسات اجتماعيّة وثقافيّة وسياسيّة وأمنيّة تمتلك استقلالاً نسبيًّا عن سلطة الدولة. وفجأةً، تأتي الدولة لتعلن أنّ مثل هذه الاستقلاليّة النسبيّة تعني وجود دولة داخل الدولة؛ وهي بذلك تضع المجتمع المدنيّ أمام إنذارٍ بتفكيكه.

ثانيًا: إنّ المفارقة المذهلة تتمثّل أنّه وبرغم هذه الحيويّة السائدة في حراك المجتمع المدنيّ، فإنّ تعدّديّة هذا المجتمع نحت نحو طوائفيّتها وسعت زعامات الطوائف لإيجاد صيغ توافقيّة تبني على أساسها ما اصطلحت عليه اسم الدولة، حتّى بتنا نرى مجتمعًا معرّضًا من قادته لاختزاله واختزال كلّ حراكه المدنيّ داخل (سلطة) أحاديّة التوجّه أطلقت على نفسها اسم (الأكثريّة). ممّا يهدّد بخنق حيويّة الحراك المجتمعيّ للمبادرات المدنيّة في وقت لا يمكن فيه للبنان أن يتماسك خارج فعل هذا الحراك الذي يقوم به مجتمعه المدنيّ.

ثالثًا: في الوقت الذي كانت فيه الطوائف اللبنانيّة ترسم عبر الحضور الماروني – الدرزيّ صورة جبل لبنان، المركز الأعلى للوطن، ويرسم ميثاق

التوافق الماروني- السنيّ، خصوصيّة لبنان كنافذة على الغرب بسمات وجهه العربيّ بحيث إنّ النقاش آنذاك كان يستدعي الجغرافيا الممتدّة، أو الانتماء العرقيّ للكشف عن هواجس الهويّة.

وجاء فعل ثقافة المقاومة للمجتمع المدنيّ في لبنان ليبني صورة الكيان بفعل الذات، وليرسم للحوار حول لبنان مسارًا جديدًا هو أيُّ لبنان نريد؟

لبنان القوة؛ في قوّة مجتمعه ودولته التي هي في خدمة مجتمعه؟ أم لبنان الهدنة وثقافة ضعف المجتمع أمام دولته؟ وأيُّ الدولتين أقوى؛ دولة المجتمع القويّ (أي مجتمع المواطنين)؟ أم دولة المجتمع الضعيف (أي مجتمع الرعايا)؟

بهذا المعنى، تصبح المقاومة فرصة تاريخيّة جديدة، تصلح لإعادة رسم صورة الحياة السياسيّة والمجتمعيّة للبنان. بل يمكن لي القول إنّ اندكاك فعل المقاومة وانجازاتها، مع حراك المجتمع المدنيّ، بحيث صارت هذه المقاومة مفردة مركزيّة ومؤسّسة لمكوّنات المجتمع في النموذج اللبنانيّ، وأدخلت رأسمالاً إضافيًا في تشكيل معنى المجتمع المدنيّ، داخل خصوصيّات ثقافيّة وبيئيّة لمجتمعات ودول العالم العربيّ، والإسلاميّ الطامحة نحو استعادة ذاتها من يد الاستغلال الأجنبيّ، والاستبداد الداخليّ.

نخلص للقول بأنّ الجهاد أعمق من أن يكون لجهة أو لحزب أو لطائفة، هو أمرّ إلهيّ الغاية منه إنقاذ البشر، كلّ البشر، ولأيّ دين انتموا، من أسر الاستغلال والاستبداد، وأنّ المقاومة اليوم، بما هي خيار الانتفاضة على الواقع المرير طريق لوحدة ما يدّعون أنّهم مختلفون.

قيم المقاومة والانتصار

الحديث حول القيم لا يتساوى والحديث حول الأخلاق، بل نعني به روح المعنى الذي يحكم حركة المقاومة في بنائها العقيديّ والتربويّ والثقافيّ والسياسيّ والعسكريّ. ويمكن لنا أن نختصر هذه المجالات بأبعادٍ ثلاث.

البعد الأوّل: الدافع

ينطلق الدافع في حركة المقاومة من أساسين عامّين هما:

الأساس الأوّل: إلهيّ، فما لم يكن الدافع في النيّة والقرار متجاوزًا حدود الذات والمصالح، لينطلق من الإيمان بالله وتحقيق مرضاته؛ وهذا ما نسمّيه بالتكليف الشرعيّ، فإنّ قيمة نيّة وقرار العمل تكون غير متناسبة والمطلوب. وهذا الدافع يتحلّى بميزتين:

الميزة الأولى: الثقة بالله، وتدخّله في حياة الإنسان ورقابته لسير المعركة، ثقةً تصل إلى درجة الإيمان. فإذا مات المقاوم كان شهيدًا وهذا فيه انتصار للمبدإ. وإذا انتصر فإنّه لا يبغي، إذ مقتضى الإيمان أنّ صاحب النصر هو الله؛ ولهذا نسمّي هكذا نصر بالنصر الإلهيّ.

لذا، ورد في بعض أدعية الإمام عليّ، عليه السلام: "اللهمّ [...] إن أظهرتنا على عدوّنا فجنّبنا البغي، وسدّدنا للحقّ. وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة"[1].

وكلّ التزام أو تحقيق أمور معينة تستلزم قيمًا محدّدة. فمع تحقيق النصر، تكمن قيمة الشكر للنصر في تجنّب البغي والتزام الحقّ، وإن كانت النتيجة هي الخسارة، فمقتضى التصرّف هو طلب الانتصار الفرديّ بعد أن لم يتحقّق الانتصار العامّ؛ وهذه هي الشهادة. أمّا إذا لم تتمّ، فعدم الوقوع في فتنة المذلّة أو التردّد أو التراجع.

الميزة الثانية: هو اليقين على القدرة بإنجاز المهام الكبرى ومواجهة

(١) خطب الإمام علي(ع)، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة ١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ٢، الصفحة ٤٨.

المصاعب الثقيلة، وأن يكون هذا اليقين مخلصًا، بحيث يواجه كلّ التعنّتات والزلازل بإرادة صلبة قويّة في طلب الحقّ الذي لا يطلَب إلّا بالجدّ، فعندما يثبت المقاوم على يقينه، يؤكّد إيمانه أنّه يكون قد نصر الله سبحانه، وهذا ما يستوجب النصر الإلهيّ؛ الأمر الذي ورد في حديث للأمير، عليه السلام:

ولقد كنّا مع رسول الله [...] ما يزيدنا ذلك إلّا إيمانًا وتسليمًا ومضيًّا على اللقم، وصبرًا على مضض الألم، وجدًّا في جهاد العدو، ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما أيّهما يسقي صاحبه كأس المنون فمرّة لنا من عدوّنا، ومرّة لعدوّنا منا، فلمّا رأى الله صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت وأنزل علينا النصر[٢].

الأساس الثاني: إنسانيّ فطريّ

ينطلق من كون أنّ الأصل في كلّ إنسان هو الصلاح، وأن الفساد والشرّ أمران طارئان عليه. لذا، فالدفاع عن إنسانيّة الإنسان المستضعَف أو المضطرّ والملهوف هو واجبٌ أخلاقيّ إنسانيّ يُقرُّه الإسلام.

يقول الرسول الأكرم، صلّى الله عليه وآله، في هذا الصدد: "الناس كلّهم عيال الله فأحبّهم إلى الله عزّ وجلّ أنفعهم لعياله"[٣]. ويقول الإمام عليّ، عليه السلام: "الناس صنفان إمّا أخٌ لك في الدين أو نظير لك في الخلق"[٤].

وعن الرسول الأكرم، صلّى الله عليه وآله: "من سمع مناديًا ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم"[٥]. وتطبيقه عند الإمام الخميني (قدّس سرّه) لا يكون بالاستجابة لنداء المسلم فقط، بل لنداء الإنسان الملهوف، وهذا مقتضى الدافع في التحرّك،؛ لأنّ هكذا دفاع هو الذي نسمّيه

---

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٠٥.

(٣) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٩٣، الصفحة ١١٩.

(٤) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٨٥.

(٥) المحقّق النراقي، **مستند الشيعة** (قم: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة ١، ١٤١٨هـ)، الجزء ١٥، الصفحة ٢٥.

إسلاميًّا بـ"سبيل الله" ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ من الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والوِلْدَانِ﴾[٦].

وهذا ما يجعل عمل المقاومة متجاوزًا للأطر الدينيّة والمذهبيّة والفكريّة؛ لأنّ الأصل في التعاطي هنا هو على أساس القيم وحدها.

البعد الثاني: هو قيم الغاية

إنّ الغاية التي ينبغي أن تستقي مشروعيّتها من الدافع الإلهيّ والإنسانيّ، لتكون إنسانيّة ربانيّة.

والغاية أو الغايات هنا هي بالإجمال:

١. إعلاء كلمة الله "لتكون كلمة الله هي العليا".

٢. منع إحداث الفتنة ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[٧].

٣. دفاع عن النفس ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾[٨]، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[٩].

٤. المقاومة لتحرير الأرض ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا﴾[١٠].

البعد الثالث: صلاحيّة المسلك وقيمة الوحدة

في رواية عن الإمام عليّ، عليه السلام، يقول: "إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه، الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله فإنّه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة، وإقام الصلاة فإنّها

---

(٦) سورة **النساء**، الآية ٧٥.

(٧) سورة **الأنفال**، الآية ٣٩.

(٨) سورة **البقرة**، الآية ١٩٠.

(٩) سورة **الحج**، الآية ٣٩.

(١٠) سورة **البقرة**، الآية ٢٤٦.

الملّة"[11].

وفي وحدة الأمّة يذكر، عليه السلام: "إيّاكم والفرقة فإنّ الشاذ من الناس للشيطان، كما أنّ الشاذ من الغنم للذئب ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه"[12]. أمّا في موضوع وحدة القيادة: "لا تسبقوهم فتضلّوا ولا تتأخّروا عنهم فتهلكوا"[13].

بينما في أصالة العفو عند المقدرة على الاقتصاص: "إذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو شكرًا على قدرتك عليه"[14].

من قيم النصر

القتال والنصر الإلهيّ يقع ضمن دائرة الولاية (النصرة) الإلهيّة، فهو ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[15]، لا ضمن النظام السببيّ المتعارف. لذا، فإنّ القتال يكون خالصًا لله سبحانه. لذا، فالقتال يكون إلهيًّا وبأيدي أهل الإخلاص ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾[16].

من هنا، تبرز الأمور التالية:

الأمر الأوّل: التوكّل: حيث لا يجد أهل القضيّة الإيمانيّة أنّ أمورهم يمكن أن تحلّ بالطرق الطبيعيّة، يلجأون إلى خصوصيّة في تدخّل الله، تقلب حتّى الأمور السنيّة، مثل إطالة العمر في الصدقة. وقلب الخسارة إلى ربح، بحيث يعتبر أنّ الله هو (الكافي) ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾[17]، ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾[18].

---

(١١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٢١٦.

(١٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٩.

(١٣) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة ١، ١٤١٦هـ)، الجزء ٢، الصفحة ١٧٠٩.

(١٤) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٥.

(١٥) سورة **الأنفال**، الآية ٤٠.

(١٦) سورة **التوبة**، الآية ١٤.

(١٧) سورة **النساء**، الآية ٤٥.

(١٨) سورة **النساء**، الآية ٨١.

الأمر الثاني: وقوع الوعد الحتميّ من الله: ﴿وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[١٩].

الأمر الثالث: البدء بالسير نحو معركة إحقاق الحقّ؛ وهي قطع دابر الكافرين ﴿أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[٢٠].

الأمر الرابع: وهكذا معركة تقتضي اختيار القائد "الاصطفاء"، كما واختيار الشعب ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[٢١]، ثمّ تأمين الظروف السياسيّة والنفسيّة وغيرها المناسبة ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾[٢٢].

صورٌ من تدخّل الله

١. ﴿فَأَتَاهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾[٢٣].

٢. التسديد ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾[٢٤].

٣. إلحاق الهزيمة النفسيّة بالعدوّ ﴿وَرَدَّ اللّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ * [. . .] وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[٢٥].

٤. تثبيت أهل الإيمان ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[٢٦].

٥. رعاية القرار القياديّ ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ

---

(١٩) سورة **النور**، الآية ٥٥.

(٢٠) سورة **الأنفال**، الآية ٧.

(٢١) سورة **البقرة**، الآية ١٤٣.

(٢٢) سورة **الفتح**، الآيتان ١٨و ١٩.

(٢٣) سورة **الحشر**، الآية ٢.

(٢٤) سورة **الأنفال**، الآية ١٧.

(٢٥) سورة **الأحزاب**، الآية ٢٥ و٢٦.

(٢٦) سورة **الأنفال**، الآية ١٢.

الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّه عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[٢٧].
والذين يرفضون نسبة النصر إلى الله، ورد ذكرهم في القرآن ﴿إِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ ﴾[٢٨].

قيمة وعي الانتصار: حرب تموز ٢٠٠٦م نموذجًا

جاء كلام الأمين العام لحزب الله، السيّد حسن نصر الله، حول حرب تموز ليصف المعركة المصيريّة التي شنّتها إسرائيل على لبنان بأنّها من الحروب الكبرى، وأنّ المقاومين لها هم رجال الله، وأنّ قرارهم فيها هو الاعتماد والتوكّل على الله وحده، والتسليم والإخلاص لله سبحانه وتعالى وحده، وأنّها المعركة التي يخوضها هؤلاء الرجال دفاعًا عن الحقّ وعن الأمّة بقضاياها الوطنيّة والقوميّة والإسلاميّة والإنسانيّة.

ولمّا شارفت الحرب على خواتيمها، هنّأ سماحته الأمّة "بالنصر الإلهيّ"؛ وهو الأمر الذي أدخل إلى قاموس المصطلح السياسيّ في اليوميّات اللبنانيّة مفردةً جديدة لطالما شكّلت في تراث هذه الأمّة العقائديّ مورد اهتمام، بحيث نجدها في الفترة التأسيسيّة لإعلان الرسالة الإسلاميّة تعيش ضمير المسلمين ووجدانهم بعد أن عاينوا النصر الإلهيّ في بدر، أولى معارك المسلمين، والتي كانت قوّة العدوّ فيها مكوّنة من ألف مقاتل مجهّزين بعدّةٍ كاملة من سيوف وسهام ورماح، وفيهم ٢٠٠ فارس و٧٠٠ دارع، ولديهم مؤونة سبعمئة بعير، تكفيهم للمرابطة في مكان المعركة أكثر من شهرين، وهو استعداد استثنائيّ في معارك ذاك الزمن؛ أمّا المسلمون، فكانوا من حيث العدد ثلث قوّة العدوّ؛ أي ٣١٣، ليس لديهم، على أكثر الروايات، سوى ثمانية سيوف وثلاثة أفراس، والغالبيّة الساحقة منهم غير مسلّحين، وكانت مؤونتهم وركبهم سبعين بعيرًا، كلّ بعير يركبه الاثنان

(٢٧) سورة **النساء**، الآية ١١٣.
(٢٨) سورة **الأنفال**، الآية ٤٩.

والثلاثة بالتناوب.

ورغم ذلك، فقد تحقّق النصر لصالح المؤمنين، وجاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[٢٩]؛ أي ضعفاء. وهو ما سمّي بالنصر الإعجازيّ حيث ورد في بعض آيات الكتاب العزيز حجم التدخّل الغيبيّ فيه؛ ممّا أدخل الثقة بالوعد الإلهيّ، بل الثقة بالرعاية الحثيثة من الله الوليّ والنصير.

وبمتابعة المشقّات الجهاديّة، أخذ وجدان النصر يدخل بأبعاده التربويّة في نفوس المسلمين وعقولهم ليستكشفوا أنّ من شروط تحقيق أيّ نصر إلهيّ حسن التنظيم والتزام قرارات القائد، وإلّا، فإنّ اختلال الترابط بين التنظيم وجسم المجاهد سيفضي إلى الانكفاء، بل قد يصل للهزيمة أو نحوٍ منها.

وللهزيمة المرحليّة آثارها كما للنصر آثاره، ومنها ما هو إيجابيّ يعزّز الثقة بالله والمبدإ والنفس، ومنها ما قد يوقع بالبعض الغرور فتصبح القناعة بالذات فوق القناعة بالله وإخلاص المجاهدين، فتأتي الانكفاءات لتعيد تصويب الأمور من جهة أهل الصدق، كما تأتي لتكشف زيف بعض أدعياء الجهاد والمقاومة من جهة أخرى؛ وهذا ما حصل في أحد حينما تخلّف بعض من المجاهدين عن الثبات في المكان المعيّن لهم. ولمّا وقع ما وقع، انبرى الذين في قلوبهم مرضٌ، والذين يعتبرون أنّهم هم أهل الرأي الذي كان ينبغي أن يتّبع للتشكيك بأصل المعركة، بقولهم كما نقل عنهم القرآن: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هنَا﴾[٣٠]؛ متغافلين عن أنّ المعركة في أُحد فُرضت فرضًا على المجاهدين، مشيعين أنّ سبب الحرب هم أهل الجهاد والمقاومة، وهذا منطقٌ ما زلنا إلى يومنا نرى تداعياته.

أمّا كيف تلقّى أهل الجهاد الأمر، فقد اعتبروه ابتلاءً يُعلّمهم ضرورة

---

(٢٩) سورة آل عمران، الآية ١٢٣.

(٣٠) سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

التمسّك بقيادة المسيرة، وهذا ما حدّث به القرآن ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾[٣١]، علمًا أنّه سبحانه حتّى في انتصار بدر سمّاه ابتلاءً، إذ قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣٢].

فالبلاء قدر الله في صنع الرجال المنوط بهم رسم مصير الأمّة وتحصين قيم الحقّ والعدالة ودفع الظلم. وهو مصفاة تستحفظ أهل الكرامة والخلوص وتلقي بالمتقلّبين الخائنين إلى حفر العار التي اصطنعوها لأنفسهم. ثمّ على طريق الجهاد وصنع النصر هناك الكثير من الوقائع والتقلّبات المفرحة حينًا والمؤلمة أحيانًا، والتي يعمل فيها خصوم الحقّ والمقاومة على إثارة الإحباط واليأس في نفوس أهل الجهاد والمقاومة وأمّة الجهاد والمقاومة، عبر ضغوطات أمنيّة وإعلاميّة وسياسيّة، توجد في جسم الأمّة بعض التقرّحات التي تحدّث عنها القرآن الكريم: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٣٣]، إلّا أنّ رعاية الله سبحانه تُحوّل المسار الصعب إلى ابتلاء يتّضح فيه بجلاء وشفافيّة الوضعيّة السياسيّة التي تنزع عن الناس الأقنعة.

فمثل هذه المداولة في الأيّام سيتّضح فيها أهل الإيمان الذين هم عموم الأمّة المحتضنة لقضايا الحقّ وفعل الجهاد. كما وسيبرز مَن هم الذين يتّخذهم الله سبحانه شهداء على الحقّ في مسيرة الحقّ والمقاومة. وسيبرز أهل النفاق السياسيّ من الظالمين، سواءً أكانوا أصدقاء الغد وأعداء اليوم، أو كانوا من الواضحين منذ البداية في عداوتهم.

وهؤلاء المتردّدون الظالمون الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى:

---

(٣١) سورة آل عمران، الآية ١٥٢.

(٣٢) سورة الأنفال، الآية ١٧.

(٣٣) سورة آل عمران، الآية ١٤٠.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللّه قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[٣٤]. لن يكون لهم نفاذ في أيّ استقرار سياسيّ، ولن يكون لهم على أهل الحقّ من سبيل. لذا، فإنّهم يعكفون على التشكيك بأيّ نصر؛ ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٣٥].

كما إنّهم يشكّكون بأصل الثقافة الدينيّة التي تُلقي في نفوس أهل الكرامة الرغبة في الاستقلال، والثقة بالتحرّر، وصنع المستقبل المنتصر والواعد، وهذا ما يشير إليه **القرآن الكريم** بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾[٣٦].

وما أشبه اليوم بالأمس في هذا الجانب، ففي الوقت الذي تضجّ فيه الدنيا احتفاءً واعترافًا بالنصر الواضح البيّن، فإنّ تشكيكًا هنا ونفاقًا هناك يريد أن يُلبس الحقّ ثوب الباطل ليُفرغ صورة الانتصار من مضمونها ومفاعيلها، وليقول: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾[٣٧] إلّا إنّ عقيدة النصر وتحقيق الانتصار تُرشد إلى ضرورة عدم الاكتراث لحفلات التشكيك والتوهين والتيقّن. إنّ المشكلة إنّما تقع بالأساس في داخل نفوس أهل الباطل وثقافتهم وطبيعة مصالحهم وارتباطاتهم، وإنّ على أهل الجهاد والمقاومة الثبات في رسم صورة المستقبل ووجهه المشرق عبر:

أوّلًا: تقوية معنويّة التوكّل على الله والثقة بما عاينوه من نصر الله وولايته لهم وعليهم ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ

---

(٣٤) سورة **النساء**، الآية ١٤١.

(٣٥) سورة **الأحزاب**، الآية ١٢.

(٣٦) سورة **الأنفال**، الآية ٤٩.

(٣٧) سورة **الأنفال**، الآية ٤٩.

يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣٨].

ثانيًا: أن لا تضعف القيادة أمام كلّ صنوف الحرب النفسيّة والتهويلات الخارجيّة والداخليّة، وأن تبقى محتسبة بالله سبحانه ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[٣٩]؛ فالاحتساب الواثق إذ يرتبط بالله وبالمؤمنين بنهج قضيّة الحقّ والمقاومة الجهاديّة، فإنّ على أتباعه الثقة اليقينيّة بوعد الله سبحانه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤٠]. إنّه وعد حقّ قطعه الله على نفسه، وهل من وصف لمثل هذا الوعد أفضل من وصفه بـ "النصر أو الانتصار الإلهيّ". وحتّى لو تأخّر حصول مثل هذا النصر، فإنّ مقتضى الإيمان الصبر في الانتظار، والثبات في المجاهدة والمقاومة دون أن يتسرّب الشكّ أو اليأس إلى النفوس.

ثالثًا: حسن وديمومة الاستعداد والتجهيز لمواجهة المستجدّات والاحتمالات، وفرض السطوة على العدوّ، بحيث يتمّ خلق ظروف رادعة له ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[٤١].

رابعًا: أن لا يركن أهل الجهاد إلى الكثرة لا كسبب في تحقيق النصر لهم إن كانت الكثرة لصالحهم، ولا كسبب يلحق الهزيمة بهم إن كانت الكثرة لصالح عدوّهم. فقد حدّث القرآن عن فشل ثقافة الأكثريّة المعادية في تغيير نتيجة الصراع بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[٤٢]. كما حدّث أنّ الاعتماد على الكثرة وحدها في مقاييس موقف أهل الحقّ قد تتحوّل إلى نقمةٍ وهزيمة بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ

---

(٣٨) سورة **الأنفال**، الآية ٢٦.

(٣٩) سورة **الأنفال**، الآية ٦٢.

(٤٠) سورة **الروم**، الآية ٤٧.

(٤١) سورة **الأنفال**، آية ٦٠.

(٤٢) سورة **القمر**، الآيتان ٤٤ و ٤٥.

إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[٤٣].

خامسًا: التيقّن أنّ طبيعة التربية الإيمانيّة والجهاديّة لدى أصحاب قضيّة الحقّ لها المدخليّة الحاسمة في تقرير نتيجة الانتصار، وهذا ما ورد ذكره على لسان أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام:

ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما، أيّهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرّة لنا من عدوّنا ومرّة لعدّونا منّا، فلمّا رأى الله صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت وأنزل علينا النصر، حتّى استقرّ الإسلام ملقيًا بجرّانه ومتبوئًا أوطانه[٤٤].

فالأصل إذًا، هو الصدق في الموقف، وفي المعتمد وفي الخلق والجهاد، ليدخل بعدها النصر الإلهيّ بألطافه التي فيها:

أوّلًا: تقوية معنويّات أهل الإيمان وجبهتهم عبر:

١. إنزال السكينة في قلوب أهل الإيمان فلا يضطربوا بعدها ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٤٥]. فهي إذًا سكينة تزيد في إيمان أهل الإيمان بحقهّم، وبوعد الله الصادق في تحقيق النصر الإلهيّ.

٢. إفراغ الصبر على المقاتلين وتثبيتهم في الموقف الجهاديّ ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٤٦]. وهو نتيجة دعاء الحال عندهم، إذ جهاد المقاوم في أتون المعركة صلاة وصلة ورجاء ودعاء بأعلى مستوياته الروحيّة.

وهو ما يستدعي الطمأنينة التي تخرق كلّ الحسابات العاديّة، هذه

---

(٤٣) سورة **التوبة**، الآية ٢٥.

(٤٤) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٠٥.

(٤٥) سورة **التوبة**، الآية ٣٣.

(٤٦) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٠.

الطمأنينة التي أسماها النصّ القرآنيّ "بنعاس الأَمَنَة" بقوله سبحانه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾[٤٧]، وهي لطف وولاية قلبيّة وروحيّةَ منه سبحانه بشكل خاصّ ومباشر. ولعلّ من آثار هذه الأحوال، أن يُقلّل الله سبحانه العدوّ وقيمة وخطورة رعبه في قلوب المؤمنين ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[٤٨]. وما ذلك إلّا لأنّ الباري تعالى عَظُم في قلوبهم، فصَغُر ماَ دونه في أعينهم، إذ كان الله لهم المولى والسند. وباتوا على يقينٍ أنّ قضايا الحقّ هي القضايا التي يحبّها الله، وأنّ نصر الحقّ هو وعد الله الذي قطعه على نفسه، فإذا ما أهلَّ فجر نصرٍ فوق كلّ الحسابات العاديّة كان النصر هو "النصر الإلهيّ".

ثانيًا: الكشف عن طبيعة المكنون النفسيّ والثقافيّ الذي ينطوي عليه العدوّ من ضغينة ومكرٍ بالحقّ وأهله، وتحيّنه كلّ فرصة لإضعاف أهل الجهاد والمقاومة، بل لتصفيتهم في معتقداتهم ووجودهم الثقافيّ والماديّ، وتحويلهم إلى مجرّد رعاع وأتباع يخضعون لرغباته في التمدّد والتوسّع، ولتنفيذ مبتغياته في استنفاذ كلّ طاقة وتجهيزها لصالحه؛ في الوقت الذي يكشف فيه أنّ حرب النصر الإلهيّ ليست لردع العدوان فقط، بل لردّ فتنتهم في الأرض، إذ يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، وأنّ النصر الإلهيّ هو الذي يحقّق الهدف في أن لا تكون فتنة وطنيّة أو عرقيّة أو قوميّة أو دينيّة أو غير ذلك. ﴿قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[٤٩].

ثالثًا: كشف ما كان يضمر أهل النفاق السياسيّ والاجتماعيّ الذين كانوا يخالطون أهل المقاومة والجهاد ليثبطوهم عن قرارهم الجهاديّ التحريريّ، ومثل هؤلاء الناس سرعان ما ينكشفون فيخرجوا عند الملمّات

---

(٤٧) سورة **الأنفال**، الآية ١١.

(٤٨) سورة **الأنفال**، الآية ٤٣.

(٤٩) سورة **البقرة**، الآية ١٩٣.

من صفوف المؤيّدين لخطّ المقاومة، إذ ﴿كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾[٥٠]؛ بل أسقط كلّ حججهم بأنّهم أهل المقاومة حينما كشفَ للناس حقيقة أمرهم بإسقاط حججهم السخيفة التي يتذرّعون بها من مثل: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾[٥١]، إذ هم في الحقيقة ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[٥٢].

حتّى إذا ما أرادوا الاعتذار بعد تقاعسهم، كان الجواب حاضرًا ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾[٥٣].

والمؤمن لا يُلدغ من جحرٍ مرتين. وهؤلاء حتّى لو وصل بهم الأمر للالتحاق بركب العدوّ بشكلٍ واضح فلا خسارة بهم، إذ كلّ ما في الأمر أنّهم بانوا على حقيقتهم، وبذلك فإنّ من نتائج النصر الإلهيّ وضوح كلّ ملابسات الموقف السياسيّ والتصنيف الاجتماعيّ لشرائح الناس حتّى يحيى من يحيى على بيّنة ويهلك من يهلك على بيّنة.

ورفض أهل النفاق السياسيّ والاجتماعيّ لمنطق النصر الإلهيّ إنّما يعود للأسباب التالية:

١. خسّة نفوسهم وجبن إرادتهم عن الطموح لتحقيق استقلال حقيقيّ وحريّة حقيقيّة، وتثاقلهم إلى الأرض رغبة بالعيش كيفما كان. ولمّا كانوا بسبب وهنهم يرون أنّ النصر حليف الكثرة رضوا الخضوع لسياسة ما يعتبرونه الأمر الواقع. فقعدوا مع الخوالف، وهل الخوالف إلّا الأعراب الذين أسلموا أنفسهم لسلطان اللذة والمصالح الفاسدة.

---

(٥٠) سورة **التوبة**، الآية ٤٦.

(٥١) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٧.

(٥٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٧.

(٥٣) سورة **التوبة**، الآية ٨٣.

٢. بناء ثقافتهم على أسطورة الانتماء للأرض، أو إن شئت فقل: الحياة الدنيا بكلّ ما تجرّه ممّا اعتادوه من عبوديّة للألم، وجلد الذات، وفقدان الثقة بالنفس، وهذه نتيجة طبيعيّة لنسيانهم الله، إذ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. وهو تعبير عن عقدة الرغبة بالقلق والانتحار السياسيّ وافتعال الأخصام.

٣. انتماؤهم النفسيّ لباطنيّة نفسيّة ترى في الزمن دورات ارتكاسيّة تلتف حول نفسها، ولا يمكن لهم أن يروا فيه إشراقة مستقبل واعد بالاستقلال المزدهر والحريّة المقتدرة التي يرشفها أهل الجهاد والمقاومة من معين الارتباط بمصدر الكرامة والعزّة سبحانه.

٤. اضطرابهم الدائم، بسبب وضعهم الاجتماعيّ الذي يعيشون فيه عقدة الصغار والمهانة ولا يستطيعون إقناع الآخرين، بقدرتهم على السيادة، فيعملون على تصيّد ضعاف النفوس ليحرّكوهم باتّجاهات يعتقدون أنّهم فيها يصنعون منهم قادةً، فتنعكس عقدهم الذاتيّة عن صنع أنفسهم ليهدفوا صنع غيرهم متناسين أنّ كلّ إناءٍ بما فيه ينضحُ، وأنّ فاقد الشيء لا يعطيه.

ينبغي أخيرًا، إذا صحّ أنّ أهل الجهاد يتلمّسون بوجدانهم الحرّ معنى النصر الإلهيّ ومداه، فإنّ الكثير من الذين يرقبون عرفوا وسيعرفون معنى النصر الإلهيّ وحقيقة واقعه من ضدّه الذي هو عدوّ الله والإنسانيّة أولًا، وعدوّ النصر الإلهيّ بين صفوفهم ثانيًا من خذلانٍ وسقوط مشاريع.